التثقيف الذاتى
أو كيف نربى أنفسنا

موسى

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01861 6825

لجنة التأليف والترجمة والنشر

التثقيف الذاتي

أو

كيف نربي أنفسنا

LC
31
M8
1947

تأليف
الأستاذ
سلامة موسى

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٦هـ — ١٩٤٧م

مؤلفات أخرى للمؤلف

١ — الشخصية الناجحة

٢ — كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين

٣ — نظرية التطور وأصل الإنسان

٤ — البلاغة العصرية واللغة العربية

٥ — اليوم والغد

٣٧٤,١
م س ٠ ت

36600

إلى . . .

رءوف ونبيـــل وخوفو

فى ذكرى العـــذاب الحلو

الذى لقيته منكم فى طفولتكم

فهرست

صفحه		صفحة	
هـ	— المقدمة	٦٥	— الأدب العربى القديم
١	— المدرسة والجامعة	٦٩	— الكتب العربية القديمة
٤	— المجتمع يربينا	٧٢	— مصر والأدب العربى القديم
٨	— لماذا نثقف أنفسنا	٧٥	— الثقافة العربية الحديثة
١١	— زيادة الفراغ وزيادة المسئولية	٧٨	— مشكلة الثقافة فى مصر
١٤	— كيف نربى أنفسنا	٨١	— الحضارة المصرية القديمة
١٨	— عادات تعوق الثقافة	٨٣	— اللغة الأجنبية
٢١	— البيئة العائلية والثقافة	٨٧	— الآداب العالمية
٢٤	— الرجعية المعارضة للثقافة	٩٠	— دراسة العلوم
٢٦	— تحصيل العيش والثقافة	٩٤	— دراسة السياسة
٢٩	— ماهية الثقافة	٩٧	— دراسة التاريخ
٣٢	— قيمة الثقافة وغايتها	١٠٠	— دراسة الاقتصاديات
٣٥	— من هو الرجل المثقف	١٠٢	— دراسة الفلسفة
٤٠	— ثقافة بشرية	١٠٦	— دراسة الدين
٤٣	— لا نقرأ بل ندرس	١٠٩	— دراسة الفنون
٤٦	— لنكن موسوعيين	١١٢	— ليكن انا كفاح ثقافى
٤٩	— الهواية فى الثقافة	١١٦	— كتب رمزية وكتب بذرية
٥١	— الجريدة والمجلة	١١٩	— بذور ثقافتى
٥٥	— سيكلوجية الدرس	١٢٤	— التعمق فى الدراسة
٥٩	— كيف نقرأ الكتاب	١٢٧	— مئة كتاب
٦٢	— دراسة اللغة العربية	١٣٠	— البرنامج للتثقيف الذاتى .

المقدمة

موضوع هذا الكتاب هو تخريج الرجل المثقف . فهو يبحث الثقافة ماهيةً وغايةً وقيمةً كما يبحث الوسائل لتحقيقها . وقد كان من حظى أن أكسب كلمة الثقافة معناها العصرى ، كما أنى صرفت شطراً كبيراً من حياتى الوجدانية فى التوجيه الثقافى لشبابنا بمؤلفات مختلفة قامت فيها المبادئ المستقبلية مقام المبادئ التقليدية . وكانت مشكلات الثقافة عندى بمثابة المشكلات السياسية أو الاقتصادية عند غيرى . بل كثيراً ما كانت هذه المشكلات شخصية أواجه فيها تربيتى الخاصة ونموى الذهنى .

ونحن فى مصر نعيش فى بؤس ثقافى أو فاقة فكرية تقارب العُدم . وليس فينا من يجهل الأسباب بل السبب الوحيد فى ذلك . إذ قد حيل بيننا و بين التعليم العصرى حتى إنه لم تؤسس وزارة المعارف مدرسة ثانوية للبنات إلا فى سنة ١٩٢٥ . وحتى إن جامعة فؤاد بقيت طريدة لا تعترف بها الحكومة أكثر من عشر سنوات . بل حسب القارئ أن يذكر القيود التى تفرض إلى الآن على الراغبين فى إصدار المجلات . وهناك قيود أخرى عديدة لا يمكن أن تفسر إلا بأن هناك رغبة مثابرة فى إنكار حقنا فى التطور .

ولكن شهوة الرقى التى تنبض فى نفس الشباب استطاعت على الرغم من كل هذه العوائق أن تستحدث جواً ذهنياً تيسر فيه التأليف إلى درجة ما . فكثرت بعض المؤلفات وتكونت لها سوق صغيرة . وصار فى مستطاع الشاب الذى يجهل اللغات الأوربية أن يجد فيها سلوى وفائدة . ومع أننا مازلنا بعيدين عن الوقت الذى نستطيع فيه أن نقول إن الشاب المصرى يمكنه أن يجد الثقافة السامية الوافية فى المؤلفات العربية ، فاننا على الأقل نستطيع أن نقول إنه سيجد سلوى وفائدة إلى جنب ثقافة متوسطة . ولن يكون الزمن بعيداً حين تزكو المؤلفات وتتفاعل مع مجتمعنا المتغير فيكون التطور الذهنى الذى ننشد . وعندئذ نستطيع أن نهتدى بثقافة حية فى هذه البلبلة العصرية التى تتصارع فيها الفكريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ولا يخلو شاب من نزعة ارتقائية تبعث فيه الرغبة والنشاط كى يعلو على نفسه ويسمو إلى مستويات أرفع من المستوى الذى يعيش فيه . وهذه النزعة إلى الارتقاء أو كما يسميها برنارد شو ، شهوة التطور ، تتخذ أشكالا مختلفة تتأثر بالبيئة الاجتماعية والمثليات المنشودة . فقد يطمح الشاب إلى الثراء أو الوجاهة أو الرياضة أو الدراسة . وقد يكون اختياره لواحد من هذه الأهداف أو لغيرها طفلياً متأثراً بسلوكه أيام الطفولة كأنه رواسب السنين الأولى من العمر . وقد يكون ناضجاً قد نشأ عن وجدان أو بشىء على الأقل من الوجدان .

وهذا الكتاب هو محاولة لإرشاد الشباب نحو الارتقاء الثقافى فى حدود البيئة الاجتماعية المصرية . أو العربية على وجه عام . أو هو توجيه لشهوة التطور وإيضاح للصحيح والزائف من النشاط الدراسى . فنحن نعيش فى عصر انفجارى ملئ بالأحداث والثورات والحروب والانقلابات . ولم يحدث قط أن عاش البشر فى مثل عصرنا . ففى أقل من ثلاثين سنة ، أى من ١٩١٦ إلى ١٩٤٦ شبت حربان عالميتان . وعم النظام الاشتراكى ١٨٠ مليون إنسان . وظهرت القنبلة الذرية . واتصلنا بالقمر عن طريق الرادار . وأصبحت مواخر الجو تزاحم مواخر المحيط . وتوشك المكالمة الراديوئية أن تأخذ مكان المكالمة التليفونية . و . و . الخ .

وكل هذا يدل على أن وطأة العلم على المجتمع قد اشتدت . وأن الثقافة قد أصبحت ضرورة محتومة على كل إنسان ، وأننا يجب أن نتغير ونتكيف ونتطور . لأن الركود فى مثل هذه الظروف جريمة . والتغير الذهنى بالارتقاء الثقافى هو بعض هذا التطور أو هو أهمه .

والتغير الآلى فى المخترعات يحدث حتماً تغيراً فى الإنتاج والمواصلات . ثم تتغير السياسة والاقتصاد والمجتمع نتيجة لذلك . ومعنى هذا كله أن الثقافة دائمة التغير . وأننا إذا ركدنا أو تحجرنا فاننا لا نرفض العيش وفق الاتجاهات الجديدة فقط ، بل نرفض الفهم والمعرفة . وننساق فى المجتمع كأننا حطامة يحملها التيار بلا وجدان أو دراية بموقفنا .

فنحن ، سواء شئنا أم لم نشأ ، نعيش فى مجتمع متطور ونحتاج إلى الدراسة الدائمة كى نقف على الاتجاهات والغايات التى ننساق بها وإليها فيه . فيجب لهذا السبب أن يكون لكل منا برنامج ثقافى هو برنامج الحياة ، بحيث نعيش لنقرأ ونقرأ لنعيش . وهذا البرنامج يقبل بالطبع التنقيح والتغيير . ولكن يجب ألا يخلو إنسان منا من برنامج ينتظم به ارتقاؤه الذهنى .

وفى الفصول القصيرة التالية إرشادات ، هى لإيجازها ، تكاد تكون إيماءات للقارىء ، فإنى توقيت التفصيل اعتماداً على أن القارىء يستطيع بذكائه أن يتمم ما نقص . ولكنى أسهبت فى الشرح حين كنت أصطدم بصعوبة سيكلوجية تعوق الدراسة ، لأن القارئ ربما يعجز عن تخطيها .

وقد كانت الغاية الأولى إرشاد أولئك الذين لم تتح لهم ظروفهم الحصول على تعليم عال ، ولكنى رأيت بعد التفكير أن المتعلمين يحتاجون أيضاً إلى الإرشاد الثقافى . وظنى أن القارئ العادى لن يجد صعوبة فى فهم الفصول التالية والعمل بها والانتفاع منها ، وخاصة إذا قرأ الكتاب بترتيبه القائم .

والكتاب ، كما يرى القارئ من تأمل الفهرست ، جزءان . فإن الفصول العشرين الأولى تعالج الخطة العامة للدراسة ، وتبحث الأساليب والقيم والظروف . أما الفصول العشرون الثانية فتعالج التفاصيل فى دراسة المواد المختلفة . ولهذا الترتيب قيمته إذا راعاه القارىء .

ورجائى أن ينتفع الشباب بهذا الكتاب وأن أجد النقد الذى ينبهنى عن الخطأ أو التقصير حتى أتلافاه فى طبعة أخرى .

شارع الفجالة مصر

سلامة موسى

المدرسة والجامعة

فى مجتمعنا الحاضر المدرسة ضرورة لكل فرد من الجنسين . وفى مجتمع راق ننتظره ونحلم به سوف نعدّ الجامعة ضرورة أيضاً لكل فرد من الجنسين . ولكن المدارس على ضرورتها ليست عامة فى مصر . أما الجامعة فمقصورة على نحو عشرين ألفاً من أبناء الأثرياء والمتيسرين .

وكلنا يعرف أن ما نحصل عليه فى المدارس من المعارف مقدار صغير إزاء الحاجات التى تطالبنا بها الحياة . ولذلك فإننا نحس الجهل فى مواجهة الصعاب كما نحس الحاجة إلى الدراسة . والتعليم المدرسى يتناول طائفة من المعارف تعد أساسية فى التثقيف . ولكن المدرسة مع ذلك تعامل جميع التلاميذ كما لو كانوا على قامات متساوية يحتاجون إلى قطع لا يختلف من القماش لكى تصنع لكل منهم بذلة خاصة له . ولما كان كل إنسان فذاً فى الدنيا فهو محتاج إلى معارف تتفق وكفاياته وحاجاته الخاصة . فالبرنامج التعليمى الذى يوضع لمليون صبى أو شاب لا يمكن أن يؤدى حاجات كل صبى وكل شاب إلا على وجه عام نتجاهل فيه الخصائص والميزات التى لكل فرد .

ثم هذه المعارف التى نحصل عليها فى المدارس حتى مع الدقة فى اختيارها إنما تعد أساساً نبنى عليه حين نخرج من المدرسة . فإذا ركدنا فإن هذا الأساس لن يغنى . فنحن فى حاجة عقب المدرسة ، بل عقب الجامعة ، إلى أن نوالى الدراسة . والمعلم الممتاز هو ذلك الذى لا يقتصر على إيصال المعارف إلى أذهان تلاميذه بل يضع لهم الخطط للدراسة بحيث يمكنهم أن يستغنوا عنه وأن يعلموا أنفسهم مستقلين مدى حياتهم . وقلّ أن نجد مثل هذا المعلم . ومجتمعنا فى تطوره السريع فى حاجة إلى جمهور مثقف فى نشاط ذهنى مستمر لكى يستطيع حل المشكلات الطارئة ولكى يحول دون وثوب الطغاة يزعمون القدرة على ترقية الأمة بإنكار حقوقها . والجمهور الجاهل هو أعظم الوسائل لتجرئة الوصوليين على الطغيان لأنه سريع الانقياد ينخدع بالألفاظ البراقة والادعاءات الرنانة وبهلوانية المنابر .

ومن هنا قيمة الكتاب والجريدة والمجلة . فإننا نعيش — بعد المدرسة والجامعة — نحو خمسين سنة وهى غذاؤنا الذهنى ووسيلة رقينا الثقافى . فلن نبلغ النضج ما لم تكن القراءة — لا بل الدراسة — عادتنا . وما لم ننفق على تثقيف أذهاننا بمثل السخاء الذى ننفق به على شراء حاجاتنا المادية .

والمجتمع الراقى يؤمن بحرية الثقافة وهو يسن من القوانين ويضع من الأنظمة ما يساعد على رواج الكتب والمجلات بل الجرائد أيضاً . وفى الأمم الديمقراطية الأوربية نجد آلاف المكتبات التى تشترى الكتب وتشترك فى المجلات والجرائد السيارة زيادة على ما يشتريه الأفراد . فالنشاط الذهنى يجد السوق الرائجة فى تلك الأمم لمنتجاته . وإذا دخل أحدنا بيتا أوربيا وجد الكتب تزين كل غرفة فيه تقريباً . بل رأينا حتى الممر الضيق إلى المطبخ يحمل رفا من الكتب لا يقل ما فيه عن مئتى مجلد . وهذا إلى التباهى باقتناء الكتب الجديدة ووضعها على الموائد فى الصالونات .

ولهذا السبب كثيراً ما نجد فيلسوفاً عظيما فى أوربا لم يتعلم قط فى جامعة بل إن تعليمه فى المدرسة كان ناقصاً . فهذا مثلا هربرت سبنسر فيلسوف الإنجليز لم يحصل على تعليم ابتدائى كامل . بل لقد عاش نحو ثمانين سنة وهو يفخر بأنه لم يتعلم « الأجرومية » . وهذا برناردشو أيضاً . بل يمكن أن نذكر عشرات الزعماء من الساسة والأدباء ممن لم يتعلموا فى مدرسة أو جامعة . ولكن المجتمع الراقى الذى عاشوا فيه هيأ لهم جامعة كبرى من الكتب التى درسوها فنمت أذهانهم ، وحصلوا منها على النضج الثقافى الذى ربما لم يبلغه خريجو الجامعات .

فإذا كان قارئ هذا الكتاب لم يحصل على تعليم مدرسى أو جامعى واف فإنه سيجد هنا برنامجا وافيا لدراسة ذاتية يستطيع بها أن يرقى شخصيته وينمى ذهنه بحيث لن يأسف على ما فاته . وإذا كان القارئ من السعداء الذين حصلوا على تعليم جامعى فإنه سيجد هنا أيضا ما يحثه على أن يكون طالبا مدى عمره . بل يجب على خريج الجامعة أن يذكر أن سرعة النمو فى المعارف تجعل حتما عليه أن يتجدد بالدراسة الدائمة . فإن الطبيب الذى تخرج مثلا حوالى ١٩٠٨ أو ١٩١٨ وبقى يمارس الطب إلى الآن لا يكاد يجد دواء يوصف لمريض فى الوقت الحاضر مما كان يعرف قبل ١٩١٨ . لأن جميع الأدوية تقريباً جديدة .

وحسبنا أن نذكر منها الڤيتامينات والهورمونات مثل الأنسولين . ثم السلفرسان والبنسيلين ومجموعة البرونتوزيل وغيرها . وهذا عدا الأمصال الواقية . فإن كل هذه الأشياء لم يعرفها فى الجامعة ، وهو إذا كان قد جمد وكف عن الدراسة عقب الجامعة فإنه قد عاش بعد ذلك جاهلا بحرفته .

وهكذا الشأن فى سائر المعارف ، فإنها دائمة التجدد تطالب من تخصصوا فيها بمتابعة الدراسة . ولنذكر مثلا الطاقة الذرّية .

والغاية من هذا الكتاب هى أن نوضح للقارئ ميزات الثقافة وخير الأساليب التى يجب أن تتبع فى تحصيلها . إذ لو عرف الشاب أن هناك لذة سامية فى الدراسة والتوسع الذهنى تزيد على ما يجد من لذة فى اللهو السخيف أو حتى فى القراءة جزافا لما أهمل تثقيف ذهنه ولما تأخر لحظة عن وضع البرنامج وتحمل التكاليف لهذا التثقيف .

وأرجو أن يجد القارئ هنا إيحاء و إرشاداً . فينبعث إلى الدراسة ويجد فى الوقت نفسه نظاماً يتبعه . وليس الغرض من هذا الكتاب التثقيف من أجل الحرفة ، و إنما أرجو به أن أحمل الشاب على أن يتعود الدراسة وهو لا يزال فى شبابه حتى إذا بلغ الخمسين أو الستين كانت عادته الملازمة التى تجعله فى تساؤل استطلاعى طيلة حياته . وأحب أن أحمله أيضاً على أن يحس أن الدراسة فى الشباب تغير أمداء مستقبله ، وتفتح له أبوابا فى رقيه كانت تكون موصدة لولا الدراسة .

المجتمع يربينا

لصديق الأستاذ أحمد جمعة كتاب (لما يطبع) يدعو فيه دعوة غريبة عن أذهاننا هى الاستغناء عن المدارس اكتفاء بالمجتمع . أى أن المجتمع يجب أن يربينا وأننا لسنا فى حاجة إلى مدارس ننتظم فيها تلاميذ لكى نتعلم .

وغرابة هذه الدعوة تعود إلى أننا نشأنا فى بيئة جعلت المدارس مألوفة فى مجتمعنا . لا نجد مدينة بل قرية تخلو منها . ولكن لم تكن الحال كذلك قبل بضعة قرون حين كانت المدارس قليلة لا تنشأ إلا فى العواصم . وكان الناس يتعلمون الصناعات والفنون التى يحترفونها بالانتظام فى «الطوائف» . والطائفة هى الجماعة التى كانت تتألف للاشتراك فى الحرفة يدخلها الصبى فيتعلم ثم يتدرج إلى أن يصير عاملا .

وقد كان نظام الطوائف عاما فى مصر إلى أيام إسماعيل باشا . كما كان عاما فى أوربا فى القرون الوسطى . بل إن نظام الجامعات القائم الآن فى أوربا ، وهو النظام الذى يجعل الجامعة مستقلة ، إنما نشأ على غرار نظام الطوائف . لأن كل طائفة حرفية كانت مستقلة فى قبول أعضائها وتربيتهم وترقيتهم ومعاقبتهم .

ومن الحجج التى يقدمها الأستاذ أحمد جمعة على أن المدرسة غير ضرورية أن كثيراً من الزعماء والأدباء والعلماء لم يتعلموا فى مدرسة ما أو كان تعليمهم ناقصاً . مثل داروين داعية التطور بل مثل كمال أتاتورك ، وموسلينى ، وستالين ، وبرنارد شو .

ولسنا هنا نقول بالاستغناء عن المدرسة ولكنا مع ذلك يجب أن نعترف بأن فى المجتمع الحسن فرصاً كثيرة لتعليمنا نستطيع أن ننتفع بها فى تثقيفنا . وكلنا يعرف أن « الورشة » أى المصنع الصغير هى مدرسة فنية لجميع العمال الذين يعملون فيها . وكثيراً ما رأينا هؤلاء العمال يخرجون من الورشة لكى يستقلوا ويعملوا ويكسبوا بما تعلموه فيها .

ولكنا لا ننظر إلى المجتمع من حيث إنه يعلمنا الحرفة بل من حيث إننا نستطيع أن نستغله لتثقيفنا الذاتى . لأن هذا هو موضوعنا . والمجتمع العصرى الحسن يزودنا بكثير من

وسائل التثقيف . مثل الجريدة والمجلة والكتاب والسينما توغراف والراديوفون والمتحف والنادى بل والمنزل . وهو يتيح لنا الفراغ الكثير . وجميع هذه الأشياء فى المجتمع الحى حسنة . وجميع هذه الأشياء فى المجتمع الموات سيئة . وكل واحد منها يمكن أن يكون وسيلة قوية للتثقيف . وسنرصد فصولا لبعضها فى هذا الكتاب .

فأما الجريدة والمجلة والكتاب فإنها فى مقدمة الوسائل . ولا يمكن أن يخلو منها بيت متمدن أو يستغنى عنها رجل متمدن . وأولئك العظماء الذين قادوا الأمم فى الأدب والسياسة والعلوم دون أن يحصلوا على تعليم مدرسى أو جامعى إنما تحققت لهم هذه القيادة بما امتاز به مجتمعهم من جرائد ومجلات وكتب حسنة . ومن المستحيل أن ينشأ مثل هؤلاء الرجال فى مصر حيث معظم الجرائد والمجلات والكتب غير حسن . والمكتبة الحسنة لا تقل قيمة عن المدرسة الحسنة .

والمجتمع الحسن يزودنا بالمتحف التاريخى أو العلمى مع الكتب التى تشرح وتنير عن معروضاتها . والشاب المصرى الذى يدرس معروضات المتحف المصرى أو المتحف العربى أو يزور حديقة الحيوان بالجيزة (ولا أذكر حديقة السمك الحقيرة) يجد فيها جميعها تثقيفاً مفيداً . بل كذلك المتحف الزراعى . ولو أقبل الجمهور على زيارة هذه المتاحف بغية الدرس والانتفاع لعنيت الحكومة بها وفى هذه الحال يمكنها تعيين الخبراء للشرح والتنوير .

والراديوفون ينشر ثقافة عامة أكثرها بالطبع تلك الأغانى الشعبية والموسيقا العامية والقليل من المحاضرات الخفيفة . ولكنه كثيراً ما ينحط حتى تصير أغانيه أغانيج وموسيقاه ألاعيب ومحاضراته دعايات .

وقد عنى صديقى الأستاذ حنا رزق بتحليل الإذاعات فى القاهرة فوجد أن محطة الإذاعة تخص الأغانى والموسيقا بنحو خمسين فى المائة من وقتها . ولا تخص المحاضرات التثقيفية إلا بمقدار ٣٫٦٣ فى المائة من وقتها . وإليك الأرقام المضبوطة لكى تقف على القيمة التثقيفية للمذياع :

٤٩,١٨	للأغانى والموسيقا
١٤,٢٥	للقرآن الكريم
٢,٣٢	للمواعظ الدينية
٥,٥٢	لبيانات وخطب من الموظفين الحكوميين
٣,٦٣	المحاضرات والأشعار
٢,١	للأخبار
١,٧٤	للأطفال
١,٤٥	للرياضة
,٨٧	للقطع المسرحية

وهذه الأرقام تدل على أن الأمة لا تنتفع كثيراً بمحطة الإذاعة وخاصة إذا عرفنا أن المحاضرات التى لا تأخذ من وقت المحطة سوى ٣٫٦٣ لا يقوم بها فى العادة مثقفون من الطراز الأول .

***

والمجتمع الحسن ينظم العمل و بهذا التنظيم يزيد الفراغ لكل عامل فيستطيع أن يرصد منه وقتاً كثيرا لترقية ذهنه بالمعارف . وهو كذلك يزيد الكسب و يجعل كل فرد قادراً على الاستمتاع الثقافى بزيارة المعارض والمتاحف و بالسياحة وارتياد المسارح . ولكل واحد من هذه الأشياء قيمة ثقافية كبيرة فى المجتمع الحسن . ولكن قيمتها تنقص فى المجتمع السيء .

والشاب الذى يقصد إلى تنوير ذهنه وتربية نفسه يجد الفرص لذلك متعددة . ففى مدينة مثل القاهرة قلما يمر يوم دون أن نقرأ عن محاضرة ستلقى آخر النهار . وهذه المحاضرات متنوعة وكثير منها مفيد منير . وزيارة إحدى المحاكم فى قضية جنائية أو مدنية تحث على التفكير الاجتماعى وتشعرنا بمسئوليات جديدة .

ولكن يجب أن نكرر أن المجتمع الذى يربى هو المجتمع الحسن . أى ذلك المجتمع الذى فشت فيه المتاحف والمعارض وارتقى فيه المسرح وأبيحت فيه الحرية للكاتب والصحفى .

أما المجتمع المتأخر الذى يحدُّ من الحرية حيث تغذو الصحف الجمهور بنخالة الثقافة ، والذى تقل فيه المتاحف و يستحيل فيه الممثل إلى مهرج ، والذى يرهق أبناءه بالعمل فينقص فراغهم أو يجعلهم تخور قواهم فلا يجدون الوقت أو الجهد للاستمتاع الذهنى — هذا المجتمع لا يمكنه أن يربى . ومن البعيد بل من المحال أن ننتظر منه أن يخرج لنا مثقفين ، فضلا عن علماء بارزين .

إن المجتمع الأمريكى الراقى قد أباح للمسجونين أن ينتسبوا إلى الجامعات ولكن مجتمعنا المصرى إلى الآن لم يبح للطلقاء أن ينتسبوا إلى الجامعات لكى يستغلوا فراغهم . والمجتمع الراقى فى جميع الأمم الديموقراطية يبيح إنشاء الجريدة أو المجلة دون أن يطلب من صاحبها تأدية غرامة معينة كما هى الحال فى الأمم المنحطة .

والمجتمع الراقى يعنى بالمكتبة كما يعنى بالمدرسة . ففى لندن مثلا ما لا يقل عن مئة مكتبة للقراءة وللاستعارة بالمجان أو بأجور منخفضة جدا . وفى لندن أيضا نحو مئة متحف . والقهوات فى تركيا تتزود كل منها بخزانة صغيرة من الكتب والمجلات لقراءة زبائنها . والحكومة الأمريكية تبعث بلوريات كبيرة مشحونة بالكتب إلى الريف لكى تعير الفلاحين ما يشاءون منها وتعود بعد أسابيع لكى تستبدل بالمجلدات مجلدات أخرى . وكلمة « شوتوكوا » من الكلمات المأثورة فى الولايات المتحدة لأنها تعنى حملة ثقافية قامت بها جمعية بهذا الاسم بين سنتى ١٨٧٠ و ١٩٤٦ فى الريف لإلقاء المحاضرات بين الفلاحين .

وإذا نحن قارنا بين المدرسة والمجتمع من حيث أثرهما فى التربية مع فرض أن الاثنين يستويان فى الرقى ، فلا مفر من أن نقول إن المجتمع يحسن التربية والمدرسة تحسن التعليم . والتربية أعم من التعليم . والثقافة فى المدارس والجامعات أسلوبية تسير على قواعد وكثيراً ما تجمد . ولكن الشاب الذى يربى نفسه فى المجتمع يتجه اتجاهاً ابتكاريا فى ثقافته . وهو لهذا السبب أكثر حرية فى تفكيره من خريج الجامعة ثم إن القواعد الببغاوية فى البرنامج المدرسى — وأحياناً الجامعى — تمنع الطالب من التوسع فى الموضوع الذى يدرس أو الاستطراد منه إلى دراسات أخرى يستمتع بها الطالب الحر الذى لا يتقيد بامتحان .

لماذا نثقف أنفسنا

يعسر على الرجل المثقف أن يتمالك وهو يشرح الأسباب التى يجب أن تحمل الناس على أن يكونوا مثقفين . لأنه فى هذا الشرح بمثابة من يزجرهم عن القذر أو التوحش أو البهيمية ، ويوضح لهم قيمة النظافة أو الإنسانية أو التمدن . فنحن هنا فى حاجة إلى أن نقول للشاب المتخم بالفراغ والشباب والجدة إنه يجب عليه أن يثقف نفسه حتى لا يفسد . ويجب أن نقول لغيره إن الحياة المليئة الناجعة تحتاج إلى الثقافة . وأن هناك من الناس من يصح أن نسميهم بقولاً بشرية إذ ليس لهم من سمات الحياة سوى النمو الخلوى كأنهم فجل أو جرجير . وسيبقون نفسيا وإنسانيا فى عداد البقول إلى أن يثقفوا أنفسهم . وأن الحياة الخاوية تحدث سأماً لا نتخلص منه إلا بالثقافة .

وفى الفصل الأول أشرنا فى إيجاز إلى أن المدرسة والجامعة لا تكفيان لتربيتنا ، لأن المعارف أكبر من أن تحتوياها . ثم هذه المعارف ترتقى وتمحص . فهى لا تفتأ فى تنقية وتنفية . فيجب لهذا السبب أن نكون طلبة مدى حياتنا نحس النمو الثقافى والتميز الذهنى .

ثم يجب أن نعرف أن حياة الفرد قصيرة محدودة قلما تزيد على ٧٠ أو ٨٠ سنة . ولكن حياة النوع البشرى طويلة . ونحن حين ندرس إنما ننقل حياة النوع إلى حياة الفرد واختبارات الآلاف من السنين الماضية إلى اختبارات العمر القصير . أى أننا عندما ندرس التاريخ البشرى والثقافة القائمة فى عصرنا مع الثقافات المتعاقبة فى العصور الماضية نفهم المغزى من الحياة أكثر مما نفهمه من حياتنا الخاصة . وإحدى غايات الثقافة هى أن نكسب الحياة مغزى . أى أننا نحس أننا لا نعيش المعيشة البيولوجية التى لا تختلف عن معيشة الحيوان ، ليس لنا من معارف سوى ما يكفى للكسب المادى ، بل نعيش الحياة الروحية التى ندرك منها أننا حلقة فى سلسلة طويلة من البشرية التى تتمثل فينا أغراضها وأهدافها ومثلياتها . وبهذا نرتقى إلى مستوى عال له لذاته الأنيقة كما أن له أخطاره السامية .

ثم إن نظم التعليم ، بل كذلك نظام الحرفة ، يحيلنا إلى متخصصين ، نعرف فنا ونمارس حرفة . وفى حدود هذا الفن وهذه الحرفة نعيش المعيشة المحدودة . فالثقافة هنا تحيل هذا التضيق

إلى توسع وتكبر العقل وترحب القلب . فنجد عندئذ التسامح بدلا من التعصب والنظر العالمى بدلا من النظر القروى .

وانتشار التخصص فى أيامنا قد غرس عقيدة فاسدة بين الجمهور هى أن المعارف — علوما وفنونا وآدابا — لا يمكن أن يدرسها غير المتخصصين كل فى الفرع الذى يختار . وأنه ليس على الطبيب أن يعرف التاريخ وليس على الأديب أن يعرف الفلك وليس على المهندس أن يدرس الدين . وهذه عقيدة مخطئة يجب أن تكافح حتى تمحى . وصحيح أن المتخصص فى علم معين يجب أن يعرف الكثير منه أصولا وفصولا . ولكن هذا لا يمنع غيره من المثقفين أن يدرسوا الأصول بل يناقشوها بل يبتكروا فيها و يبينوا ما ربما يكون زيفا . وليس قصدنا أن نقول إنه يجب على كل منا أن يكون موسوعة تحوى جميع المعارف . فإن هذا محال . وهو لو قدّر لما انتفعنا به . ولكن المعارف فى الحضارة القائمة مشتبكة بحيث إذا شاء الطبيب فى مصر مثلا أن يدرس مشكلة الأمراض المتوطنة لوجب عليه أن يدرس السياسة القيصرية والخطط الاقتصادية اللتين اتبعتا فى مدى ستين سنة مضت إلى وقتنا . وقارئ الجريدة اليومية يجب ، لكى يتعرف التيارات والسياسية والاجتماعية ، أن يدرس تاريخ الحركة الصناعية وتفشى الاشتراكية وتصادم القيصريات الأوربية منذ ١٥٠ سنة إلى الآن . لأن الحوادث اليومية الهامة فى العالم ليست سوى الطفاوة فوق هذه التيارات . ومغزى هذه الحوادث ينعدم إذا لم نفهم هذه التيارات .

وليس شك فى ضرورة التخصص . ولكن الرجل المثقف يرفض الحدود والسدود و يستبيح لنفسه جميع المعارف لأنه يحس أنه محتاج إليها وأنه ينمو بالاغتذاء بها بل هو يتطور بها . والتطور حق وواجب لكل إنسان .

فنحن نثقف أنفسنا لكى نكبر شخصيتنا وننمى أذهاننا ولكى نتطور . فلا نموت فى سن السبعين ونحن على حال ثقافية قد اكتسبناها من الجامعة أو المدرسة فى سن العشرين أو الخامسة والعشرين . بل نظل عمرنا ونحن فى دراسة تفتأ تغيرنا التغيير الذهنى والنفسى . لأنه بدون هذا التغيير لا يتطور المجتمع أو الفرد بل إن السعادة الشخصية تحتاج إلى الشعور بالنمو والتغير والتطور .

وفى العالم الآن نحو ١٣٠ علما وفنا وهى تراث بشرى من حق كل فرد أن يعرفه بل

يقتنيه . وهو إذا كان قادرا بالمال والوقت فإن هذا الحق يعود واجبا . فإن ديانة كونفوشيوس الصينى ومكتشفات الهورمونات وصلوات أخناتون والنظام الاشتراكى فى روسيا والقوانين الكهربية وحياة أفلاطون كل هذا من حقى وحقك أن نعرفه . ومحال أن تعلمنا الجامعة أو المدرسة هذه المعارف . لأن مدة الدراسة فيهما قصيرة .

وثم اعتبار آخر . هو العلاقة الحيوية بين الذهن والثقافة حين ندرس مختارين متطوعين ليس علينا قسر . فانظر مثلا إلى شاب فى السابعة عشر من عمره يقرأ فى التناسليات . فإنه يطلب هذه المعارف كما تطلب المعدة الطعام . أو انظر إلى رجل قد فات الخمسين يدرس الدين فإن كنوزه من الاختبارات الماضية تجعله يطلب هذه المعارف بقوة وذكاء وحرص وتدقيق لم يعهد مثلها من قبل . أو انظر إلى قيمة الجريدة اليومية أيام الحرب حين يستحيل كل منا إلى بسمارك أو جلادستون ليس له حديث غير السياسة حين يصير مستقبل العالم كأنه مستقبلنا الخاص .

فهذه الظروف جميعها تجعلنا نقبل على القراءة . وبعيد جداً أن ننقل هذا الجو إلى المدرسة أو الجامعة . لأنه جو شخصى فى أغلب الأحيان . ومن هنا قيمة التثقيف الذاتى .

زيادة الفراغ وزيادة المسئولية

هناك أسباب أخرى تحمل كل شاب على أن يثقف نفسه .

وأول هذه الأسباب وأوضحها أن الفراغ يزداد . فإن استخدام الآلات — أى الحديد والنار والكهرباء — قد خفض ساعات العمل للكسب وسوف يخفضها أكثر فى المستقبل . ولن يكون اليوم بعيداً حين نصل إلى مجتمع راق يكفى أحدنا ، لكى يحصل عيشه ، أن يشتغل ساعتين فى اليوم . ثم يفرغ سائر نهاره وليله لراحته ومتعه الذهنية والجسمية والروحية . ونحن نرى فى الولايات المتحدة الأمريكية ما يشير إلى هذه الحال . فإن سكان هذه الولايات قد اشتبكوا حوالى سنة ١٨٦٠ فى حرب أهلية بسبب العبيد . وكان فريق منهم يعتقد أن من حق الأبيض أن يملك العبد الأسود يشتريه ويستغله ولا يتكلف فى ذلك سوى طعامه .

ولكن الحرب أدت إلى إلغاء الرق . ومع ذلك صار الأمريكيون أكثر ثراء وأوفر فراغا مما كانوا أيام الرق . ذلك لأن استخدام الآلات فى الإنتاج قد جعل كل أمريكى يملك نحو أربعين حصاناً (من القوة) هى بمثابة ثمانين عبداً . وكان الأمريكى يعمل حوالى سنة ١٨٦٠ نحو عشر ساعات أو ١٢ ساعة فى اليوم لكى يحصل عيشه . أما الآن فهو يعمل نحو ست ساعات مع عطلة أسبوعية هى يومان كاملان . وهذه الساعات الست سوف تكون خمساً ثم أربعاً الخ ذلك لأن الآلات فى تقدم لا ينقطع .

وهذه الحال — على الرغم من المبادئ القيصرية والاستعمارية — سوف تعم الدنيا . فيجب أن نوطن أنفسنا على أن الفراغ سيزداد ، وهذا الفراغ سيثقل علينا عبئاً باهظاً إذا لم نشغله باهتمامات ثقافية حيوية . ونحن حين نرصد طوالع المستقبل نحس أنه يجب على المدارس من الآن أن تعلم تلاميذها كيف يقضون فراغهم أكثر مما يجب عليها أن تعلمهم كيف يحصلون عيشهم . ذلك لأن تحصيل العيش لن يحتاج إلى أكثر من ساعتين فى اليوم . وهو لم يعد فنا ، لأن العامل يندمج بين آلاف العمال فيتحيز جزءاً صغيراً من العمل الذى يؤدى تأدية آلية خالية من المجهود العضلى تقريباً . أما الفراغ فلا يقل عن ٢٢ ساعة إذا

فرضنا أن منها ١٠ ساعات تقضى فى الطعام والنوم بقيت ١٢ ساعة يجب أن يشغلها بما يرقيه. فإذا جهل الوسائل لهذه الترقية فإنه يحس خواءاً ذهنيا لا يطاق ، أو هو يملأ فراغه بتسليات سخيفة ، أو ربما يقع فى غوايات ضارة .

لقد كان الفراغ فى العصور القديمة مقصوراً على النبلاء والأثرياء وكان ترفا غالياً لا يحصل عليه الفقير . وجمهور الأمة كان من الفقراء ، ولكن هذا الترف يستفيض — بفضل الآلات — بين جميع أفراد الشعب . حتى عمال الزراعة أنفسهم سوف يجدون هذا الفراغ حين يتركون آلاتهم البدائية ويستعملون آلات القوة البخارية والموطرية . والتثقيف الذاتى لهذا السبب ضرورة حتمية لكى نملأ بها هذا الفراغ .

وسبب آخر يجعل هذا التثقيف الذاتى حتميا أن المجهود العضلى الذى كنا نبذله فى الزراعة والصناعة والتجارة قد استحال إلى مجهود ذهنى . فالقوة العضلية فى الإنسان لم تعد لها قيمة كبيرة إلا فى المباريات الرياضية . والمصانع تؤسس الآن فى الأمم المتمدنة ، التى نرجو أن نصل إلى مستواها ، بحيث تكاد تعمل مستقلة فتتسلم المواد الخامة من ناحية وتخرجها من ناحية مشغولة مهيأة للاستعمال . وكل ما على العامل أن ينظر ويشرف ويصل هذا المفتاح بذاك .

والعامل فى هذه الحال موفر القوة العضلية . وهو يترك عمله مرتاحا مستعدا لأن يقوم بأى مجهود آخر . فهو ليس مثل ذلك العامل الآن الذى يترك عمله عندنا منهوكا فلا يستطيع النظر فى جريدة أو كتاب حتى لو وجد الفراغ للقراءة .

ولكننا أيضا صائرون إلى هذه الحال فى مصر. أى أن العمل لن يجهدنا ، ولن يستهلك سوى أقل الوقت . فنخرج منه مرتاحين مستعدين للفراغ الذى نملأه بما يرقينا ذهنيا ونفسياً وروحيا .

وسبب آخر يجعل التثقيف الذاتى حتميا — وهو فى نظر المؤلف أهم الأسباب — أن مسئولية الفرد قد أصبحت خطيرة . فقد كانت الدنيا تسير فى العصور السابقة بحكم الملوك والأمراء والنبلاء والوزراء . أما الآن فإن الدنيا كلها تتجه نحو الديمقراطية حيث أفراد الشعب يجب أن يكونوا الحاكمين الحقيقيين ، ولا يمكن الفرد أن يضطلع بالحكم إلا إذا

كان مستنيراً عن شئونه . والحكم هنا هو حكم الدنيا كلها . لأن الشر — كالوباء — لا يتجزأ ولا يتحيز . فكما أن الوباء ينتقل من قطر إلى قطر ، كذلك الشر والسياسة مثل القيصرية والفاشية تنتقل بالعدوى وتحدث الدمار والخراب فى أنحاء العالم بالحروب والثورات والانفجارات الاجتماعية .

وتقدم الآلات الذى ذكرنا والذى قلنا إنه سيزيد فراغنا ، هذا التقدم نفسه ، قد جعل خطر الحروب بل خطر الاستبداد كبيراً جداً . فلا يمكن أن نتقيهما إلا إذا جعلنا كل فرد فى أنحاء العالم مثقفاً مستنيراً يميز بين المعرفة المرشدة و بين الدعاية المضللة .

فإذا ألممنا بجميع هذه الاعتبارات أمكننا فى حق وصدق أن نقول إن التثقيف الذاتى هو واجب دينى على كل إنسان . لأنه الضمان للحكم الصالح على هذا الكوكب .

كيف نربى أنفسنا

هذا الفصل التالى سبق لى أن نشرته فى مجلة الشئون الاجتماعية وأرى أن له مكانا هنا .

كان جرانت ألين الأديب الإنجليزى يقول على سبيل التهكم بالمدارس : يجب أن نمنع المدارس من التدخل فى تربية أولادنا .

وهو يعنى هنا أن المدارس لا يمكنها أن تربى الناس وأنها إذا حاولت ذلك لم تنجح . وأن مكان التربية الحقيقى هو البيت أو الشارع أو المجتمع . ولا يشك أحد الآن فى أن قدرة المدرسة فى التربية على إيجاد النزعات وتكوين الأخلاق والتوجية الاجتماعى أو الفلسفى صغيرة وأننا نحصل على هذه الأشياء جميعها من بيئات أخرى غير المدرسة . وهى تتكون وتنمو معنا نمو الحياة .

ولكن على فرض أن المدرسة تربى كما تعلم فإن الناس ليسوا سواء فى الحصول على الفرص المدرسية أو الجامعية . فإن منهم من يقتصر على التعليم الابتدائى . ومنهم من يصل إلى الشهادة التوجيهية وعدد الذين يحصلون على تعليم جامعى محدود .

وتكاد التربية تكون عملا فسيولوجياً . فإن الجسم لا يطلب الطعام إلا عند الجوع ولا يطلب الماء إلا عند العطش . وهو يأخذ من الماء والطعام بالقدر الذى يحتاج وفى الوقت الذى يحس فيه عاطفتى الجوع والعطش . وهو يختار ما يحب و يأنف مما يكره . وكذلك الشأن فى التربية فإن الإنسان متى جاز طور الطفولة أو الصبا عرف كفاءاته و بواعثه وأدرك حاجاته الثقافية وطلبها بالقدر الذى يمكنه أن يهضمه و يمثله . وكما أن الطعام يستحيل شيئاً آخر فى الجسم غير ما كان عليه قبل أن يهضم و يمثل ، كذلك المعارف تمتزج بنفسياتنا وتحرك نشاطنا وتبعث طموحنا ، و يختلف تأثيرها من شخص إلى آخر لاختلاف النفسية عند كل منهم . ومن هنا قولنا إن التعلم عمل فسيولوجى لأن له دورة فى النفس كما أن للطعام دورة فى الجسم . ولذلك خير من يعلم الشاب هو الشاب نفسه . لأنه حين يشتهى الوقوف على موضوع ما إنما يشتهيه لحاجة نفسية . وهذه الحاجة هى بمثابة الجوع الذى يهيىء للهضم والتمثيل .

وأعظم ما يعاب على المدرسة أنها تعلمنا المواد وتعطينا المعارف ولكنها لا تعلمنا الطريقة التى يمكننا أن نحصل بها على هذه المواد والمعارف . وصحيح أن المدارس « الناهضة » التى اتبعت طريقة « المشروع » وغيره من الطرق قد انتبهت إلى هذا الركن الأساسى من التربية وشرعت تعالجه . ولكن ، إلى أن تعم المدارس الناهضة ، سيبقى شبابنا وهم قاصرون مقصرون فى المدارس . وسيبقى فضل التربية الذاتية واضحاً بارزاً على التربية المدرسية لهذا السبب .

وبواعث التربية الذاتية تختلف . فهى عند أحد الشبان حاجة يحسها بشأن العمل الذى يمارس من حيث إنه يريد الاستزادة أو التكمل فيه . وعند غيره هواية قد شغلت ذهنه وهى تتفتح أمامه بضروب من الارتياد الذهنى ، وعند آخر قد يكون الباعث قراءة الجريدة اليومية والرغبة فى الوقوف على العوامل التى تختبىء وراء السياسة .

ولكل شاب فترة فى حياته تقع بين السابعة عشر والخامسة والعشرين يحس فيها رغبة حارة للاطلاع كأنها الحمى . وقد يسوء استغلال هذه الفترة لأن الأبوين يكفان ابنهما مثلاً عن هذا الاطلاع ويميتان فيه هذه اليقظة . ولكن الأغلب أن الشاب يجد فى هذه السنين بواعث قوية تطلق ذهنه على الرغم من جميع القيود للتعرف إلى كثير من المشكلات الدينية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية . وقد يكون لهذه الحمى الثقافية علاقة فسيولوجية بتطور النمو فى الشاب وانتقاله من طور الصبا إلى طور الشباب وما يؤدى إليه هذا الانتقال من حيرة تبعث على التطلع الجنسى أولا ثم يتسع هذا التطلع إلى أن يصير بعد ذلك ثقافيا .

وفى هذه الفترة يتعود الشاب القراءة حتى تصير هواية يشغف بها . وبعيد أن يتعلق بالثقافة إذا فاتت سن الشباب . وهو فى هذه الهواية يجد من النظريات والأفكار ما يعد محوريا أو بذريا فى النمو الذهنى . فإن المعارف ليست سواء لأن بعضها يقع فى التربة الذهنية جامداً لا يلقح . وبعضها يجد خصوبة فينمو ويمتزج ويتفرع إذ هو بمثابة البذرة الصالحة للنمو . وبتوالى السنين ، واصطدامنا بالحوادث التى تتفاعل أذهاننا بها ، تنتصب عندنا طائفة من الأفكار نعتنقها كأنها المبادئ أو العقائد أوالمذاهب . ونحن نقرأ لكى نتوسع فيها وندافع عنها . فتصير لنا بمثابة الحافز الذى يحفزنا على الاستزادة من الدرس والتوسع .

وكل قارئ تقريباً سيجد هذه الأفكار المحورية أو البذرية تنشأ ثم تنمو فى ذهنه .

وعليه عندئذ أن يرعاها بالتوسع فى القراءة المنظمة والدرس المتواصل . وقد عرفنا كثيرين من الشبان كان السبب لتعمقهم فى الإنجليزية أو الفرنسية رغبة حارة فى استقصاء أحد الموضوعات العلمية كما عرفنا شباناً آخرين كانت التربية المدرسية تنقصهم ولكن حمى الاطلاع أصابتهم حوالى الثامنة عشر من العمر فاندفعوا فى تيارها وحصلوا من الثقافة على مالا يمكن لأى تعليم مدرسى أن يزود أحداً من التلاميذ به . وعرفنا آخرين أصبحت التربية الذاتية عندهم عادة فصارت لهم فى بيوتهم مكتبات كفتهم عن التعرف إلى المفاسد التى يقع فيها زملاؤهم من الشبان الذين لم يهووا القراءة .

ولكن كيف يمكن الشاب أن يعمد إلى تثقيف نفسه إذا كان قد ساء حظه فلم يتعلم التعليم الكافى فى المدرسة ثم لم يجد فى نفسه تلك الحمى التى أشرنا إليها أو وجدها ثم لم يستطع الانتفاع بها لظروف مختلفة ؟

وللجواب على هذا السؤال نقول إن مثل هذا الشاب قليل . لأن هذه الحمى الثقافية تكاد تكون طبيعية والمحموم بها يتغلب على جميع العوائق . ولكن لنفرض أن شابا قد بلغ العشرين أو الخامسة والعشرين يحب أن يشرع فى برنامج ثقافى فكيف يفعل ؟

يجب أن يعمد قبل كل شىء إلى الجريدة اليومية يقرأها فى الصباح لكى ينبه ذهنه ويتصل بالمجتمع العالمى ويلقى عليه نظرة علمة . وفى الجريدة مشروعات وأخبار وحوادث يجب أن تبعث التفكير عند الإنسان العادى . وبالطبع تختلف الجرائد فى النزعة الثقافية ومقدار عنايتها بالفنون والعلوم والسياسة . ولكن القارئ لا بد مهتد إلى ما يلائمه .

ثم يجب عليه أن يتدرج من الجرائد اليومية إلى المجلة الراقية ثم إلى الكتاب . ونحن نقول « يجب عليه » ولكن الحقيقة أن الرغبة ستدفعه فى نشاط وحرارة إلى اختيار المجلات والكتب متطوعا بلا إجبار . ومتى فعل ذلك فإنه يكون عندئذ قد وصل إلى « الطريق الملوكى » للثقافة . وذلك أنه سيعين لنفسه غاية ثقافية كأنها البوصلة يتجه بها وينشد المعارف ويجمعها للوصول إليها . ولما كانت الثقافة فسيولوجية فى أسلوبها فإن الرجل المثقف سيأخذ منها أنواعا ومقادير تأتلف ومزاجه . ولذلك كثيراً ما ينسلخ الإنسان من ثوبه الثقافى ويستحيل شخصاً آخر كما تنسلخ العذراء من الفيلجة وتصير حشرة كاملة .

والرجل المثقف يمتاز بالتخصص . فهو يهوى موضوعا معيناً ينفق عليه من وقته وماله . وهذا الموضوع يكون له بمثابة المحور الذى يجمع إليه شتى المعارف تنتظم وتنمو وتتفرع . فهو يبدأ فى تعميم ، يقرأ هنا وهناك ، كأنه يتسكع أو يتنزه ولكنه ينتهى إلى تخصص . فيحصر معظم قراءته فى موضوع معين يتصل بحرفته أو هوايته . وعندئذ تنتظم دراسته لأن التخصص يجعله يتعمق و يأنف من المعارف السطحية . وكل شاب مثقف يجب أن يتعمق فى فرع معين من المعارف بحيث يحاول أن يعرف كلياته وجزئياته كما يعرف شيئاً ما عن سائر المعارف .

وفى عصرنا الحاضر من المشكلات ما يجعل كل إنسان محتاجا إلى الثقافة إن لم يكن لحلها فلا أقل من تفهمها . ومن هنا قيمة التربية النفسية والنظر إلى شئون العالم بالفهم والدرس والرغبة فى التعرف والاطلاع .

عادات تعوق الثقافة

المفروض أننا نكتب هذا الكتاب لأفراد الطبقة المتوسطة أو العالية حيث يتوافر الفراغ ساعتين أو أكثر كل يوم للشباب من الجنسين . لأن التثقيف الذاتى يحتاج إلى الفراغ وكان يمكن أن نضع عنواناً لهذا الكتاب « استغلال الفراغ بالتثقيف الذاتى » .

والفراغ فى مصر متعة خاصة للأغنياء والمتوسطين . بل التعليم المدرسى كذلك . وقليل جداً من الفقراء من طبقة العمال هم الذين يجدون بعض الفراغ . والشاب الذكى يجب أن يوفر فراغه ويعنى بملئه بالمفيد الذى ينمى شخصيته ويكبر ذهنه ويخدم تطوره .

ويستطيع الشاب فى القاهرة مثلا أن يختار الوسائل لملء هذا الفراغ . فهناك مثلا المسرح وقاعة المحاضرات والسينما توغراف والقهوة والنادى . كما أن هناك المكتبة . وجميع هذه الوسائل تستحق الالتفات والعناية بشرط ألا نسىء فى استعمالها بالإدمان أو باختيار السخيف فيها دون الجليل . فليس شك فى أن المسرح مفيد ولكن إذا استحال التمثيل تهريجا صاخباً تخرج فيه الوقائع عن مألوف الحياة أو تؤكد فيه بعض النواحى فيها دون بعض كما نرى مثلا فى المبالغة فى الناحية الغرامية والتحرش بالغريزة الجنسية فإنه — أى المسرح — يعود مضيعة للوقت ومفسدة للنفس . وكذلك القصص السينمائية قد تنحدر إلى سخف لا قيمة له . وليس شك فى الفائدة من القهوة والنادى إذا كان الشاب يجعلهما وسيلة للتعارف إلى الصديق الراشد الذى ينتفع بحديثه . ولكن لا بد من الاعتدال هنا لأن الإدمان فى غشيان القهوة قد يجر إلى الوقوع فى الشراب . وعندئذ يقع الشاب فى عادة يشق التخلص منها . وقد يجر إلى ألعاب الحظ التى تستهلك الوقت .

ومع الاعتراف بقيمة هذه « الملاهى » فى الترويح والإمتاع يجب أن يخص كل شاب قسما من وقته للتثقيف . ويجعل الثقافة عادته التى يمارسها كل يوم بأن تكون الجريدة والمجلة والكتاب فى صحبته لا تفارقه يوماً بل لها المكان المحترم فى البيت .

وهناك عوائق تنشأ أحياناً من الشخصية وأحياناً من البيئة الاجتماعية تجعل التثقيف شاقا أو بعيداً عن أن يصير عادة . فهناك مثلا الشخصية الانبساطية التى نعرفها فى ذلك

الشاب الذى يميل إلى السمن وتكتل اللحم فى الوجه المستدير وسائر الأعضاء . فإن المزاج العام فى هذا الشخص يميل به إلى إيثار الاجتماع على الانفراد . والتثقيف الذاتى يحتاج إلى الانفراد . ويجب على مثل هذا الشاب أن يعرف نفسه وأن يكافح ، فى يسر و بلا إرهاق ، تلك الميول الانبساطية بأن ينفرد من وقت لآخر و يتعود القراءة والدراسة . و بدهى أنه ليس من الممكن أن يحيل المزاج الانبساطى إلى مزاج انطوائى . ولكن الشاب الذى يجد فى نفسه ميلا إلى الاجتماع وقضاء الوقت مع الإخوان يجب أن يتنبه إلى حاله هذه وأن يقتنى الكتب و يدرسها . وعليه أن يذكر أن أعظم رجل مثقف فى عصره وهو جيته كان انبساطيا يلتذ الاجتماع ولكنه عود نفسه الانفراد والدرس والثقافة . وأخطر ما يقع فيه الانبساطى أن تصبح القهوة ملجأ فراغه يقضى فيها الساعات وهو يلعب مع رفيق انبساطى آخر أحدى لعب الحظ فى جد واجتهاد كأنه يؤدى بهذا اللعب رسالة لخدمة الإنسانية .

فإذا تركنا هذا الاختلاف بين المزاجين وجدنا عادات يتعودها الشبان تعوق تثقيفهم أو تؤخره أو تنقص من قيمته . فهناك ما يمكن أن نسميه «الترهل الذهنى» كذلك الترهل الجسمى الذى يصيب بعض الشبان والكهول يسمنون و يستكرشون . فإذا ساروا فى الشارع كانوا كأنهم مرضى لفرط بطنهم و إذا قعدوا لم يحبوا أن ينهضوا إلا بعد ساعات تجد عضلاتهم مترهلة غير مشدودة وأذهانهم منطفئة غير مشبوبة . وهذه الحال — فى الجسم والذهن — تعود فى النهاية إلى ترهل نفسى . لأن الشاب — لسبب ما — فقد من الحياة توابلها فهى ماسخة قد خلت من الحرافة التى تبعث الشهوة وتحرك اليقظة . وهذا الترهل الذهنى قد يصل إلى الجمود فلا قراءة ولا دراسة بل مقاطعة تامة للكتب والمجلات . وأحيانا لا يصل إلى هذا الحد ولكنه يقف عند قراءة القيل والقال فى المجلات الأسبوعية أو قراءة القصص الأسبوعية وهذا المرض يفشو كثيراً بين النساء والفتيات فى مصر . وقيمة هذه القراءة لا تزيد على أكل اللب أو قتل الوقت بألعاب الحظ .

ويجب أن ندعو هذا المترهل إلى أن يتطور بأن يرقى ويختار بعض الكتب الأخرى من المؤلفات الدسمة التى تغذو الذهن وأن نعيب عليه جهله وأن نعرض عليه ألوانا حسنة مغرية من الآداب والمعارف تفتح له أبوابا لعالم آخر يجهله .

ثم هناك ذلك الجمود الذى يصيب المتعلمين من المتخصصين كالطبيب أو المهندس الذى

لا يدرس الآداب أو التاريخ أو العلوم الأخرى لأنه « متخصص » وحسبه من المعارف ما يندمج فى الفن أو العلم الذى تخصص فيه . فإن تخصصه هنا لا يمنع من وصمه بأنه جاهل . وربما كان جهله أخطر من جهل الأميين لأن عند هؤلاء تواضعا أما هو فيحمله تخصصه على كبرياء كاذبة تؤذى المجتمع لأنه يرتأى آراء منشؤها الجهل. وفى مجتمعنا الحاضر تشتبك فروع الثقافة حتى أننا نحتاج جميعا إلى دراسة عامة لطائفة عديدة من العلوم والفنون لكى نحسن الفرع الذى تخصصنا فيه . فالطبيب محتاج إلى دراسة الاقتصاديات للعلاقة المتينة بين الفقر والمرض . ومهندس الرى فى مصر يجب أن يدرس أمراض التربة التى انتهت إلى إيجاد مرضى الانكلستوما والبلهارسيا . ورجل الدين يجب أن يدرس الأصول التى ينبنى عليها المجتمع الحاضر لكى يجعل الدين عمليا مفيدا . الخ .

البيئة العائلية والثقافة

من أسوأ الأحوال الاجتماعية فى مصر أن التكافؤ الثقافى بين الزوجين نادر أو معدوم . فالزوج متعلم مثقف والزوجة لم تحصل من التعليم إلا على نصيب صغير . وهى لم تتعود الثقافة . و بعض التبعة فى هذا يعود إلى تقاليدنا التى نزلت بالمرأة إلى مركز اجتماعى دون مركز الرجل . ولكن بعض هذه التبعة أيضاً بل ربما معظمها يعود إلى قوات قيصرية قاهرة كما نرى مثلا فى تلك الحقيقة المخزية وهى أن وزارة المعارف لم تؤسس مدرسة ثانوية للبنات إلا سنة ١٩٢٥ .

وقد نشأ عن هذا الإهمال أن البيت المصرى لا يزال إلى الآن يجهل المكتبة . وأن الكتاب والصورة والتحفة ليست من أثاثه . وليس شك فى أن نهضتنا منذ سنة ١٩٢٢ قد عالجت هذه الحال بعض الشىء كما يدل على ذلك آلاف التلميذات فى الأقسام الثانوية ومئاتهن فى الجامعتين . فنحن ناجحون فى مكافحة ظلام القرون الماضية وظلام القرن العشرين معاً . ولن يبعد اليوم الذى نرى فيه نور الثقافة يشع من بيوتنا حين يعيش الزوجان متكافئين يتحدثان بلغة واحدة على مستوى راق من الفهم والتفاهم .

وما دامت الزوجة جاهلة فى حال الأمية أو لم تحصل إلا على الدرجات الأولى من التعليم فإنها تعارض زوجها فيما ينفق من وقت أو نقد على الكتاب . وهو ، لظروف المعيشة الزوجية وتكرار الإلحاح أو التو بيخ ، قد يضطر فى النهاية إلى مسايرة زوجته فيكف عن شراء الكتاب أو يرضى بتجميد ذهنه إيثاراً للسلام العائلى . ولكنه إذا كان على شىء من المتانة الأخلاقية استطاع أن يتغلب على جهل زوجته ولو فى مشقة .

و بدهى أن خير الوسائل لهذا التغلب هو تعليم الزوجة حتى ترتفع إلى مستوى زوجها . ولكن هذه الوسيلة شاقة إذ من البعيد أن تتعود امرأة عادات الثقافة بعد أن قضت نحو عشرين سنة فى الجهل أو ما يقارب . وكثيراً ما يجد الزوج أن التفاوت الثقافى بينه و بين زوجته قد استحال هوة فاغرة حتى لتعود الزوجية معاشرة غايتها التعارف البيولوجى فقط .

لأن لكل منهما اتجاهاً فكرياً يمنع الاشتراك فى الحديث والاتجاه إلى المثليات .

ولكن الزوجة حتى حين تكون متعلمة تبخل بثمن الكتاب وتجد فى التفات زوجها إلى الدرس إهمالا لها أو قلة فى العناية بها . فهى تغار من الكتاب كما لو كان ضرة . وسوف تبقى هذه الحال عامة إلى أن نحطم التقاليد السوداء ونجعل تعليم المرأة مثل تعليم الرجل سواء فى الكم والكيف . لأننا بهذه التسوية نرفعهما إلى مستوى مشترك حيث يتحدثان ويفكران ويتجهان فى غير انفصال .

و إلى أن نصل إلى هذه الحال يجب على الزوج أن يعالج زوجته المعالجة الإيجابية البنائية . فإنه يسهل عليه مثلا أن يوضح لها أن القراءة و إن تكن تلهى عنها فهى تمتاز بأنها تجذب الزوج إلى البيت حيث يكون مع زوجته وأولادها يقضى فراغه معهم بدلا من تلك الملاهى الأخرى التى تجذبه إلى القهوة أو النادى حيث يكون عرضة لغوايات مختلفة . والفراغ إذا لم يملأ بالكتاب سوف يملأ بأى لهو آخر قد يضر بالصحة الجسمية أو النفسية أو المالية . ثم الكتاب مع ذلك يمكن أن يكون من الأثاث الفاخر للبيت إذا عنينا بتجليده واقتنينا الخزانة أو الرف الذى يحمله .

والزوجة لاتجاهها الاجتماعى تقدر الأثاث الحسن . ومن أعظم العقبات فى اقتناء الكتب أننا نشتريها فى مصر بغلاف من الورق الذى سرعان ما يتمزق أو يتفكك فيشوه الكتاب ويجعله ناشزاً بين أدوات من الأثاث المنسق حتى لتحتاج الزوجة إلى إخفائه ودسه فى مكان ما . فإذا عنى الزوج بتجليد الكتاب واقتناء خزانة فاخرة لا يقل ثمنها أو التأنق فى صنعها وتزيينها عما نفعل بخزانة الملابس وجدت الزوجة فخراً وسبباً للمباهاة فلا تعارض فى اقتناء الكتب .

و إلى الكتب يجب أن تضاف تحف أخرى مثل الصور و بعض الطرف الجميلة . وفى هذه الحال يزدان الصالون المخصص للضيوف بالكتب والتحف والصور كما يزدان بالكراسى أو المناضد . وتقدر الكتب من أدوات البيت الضرورية التى تتنافس ربات البيوت فى اقتنائها بل ربما فى قرائتها .

وليس مفر للزوج ، إذا شاء أن يعيش سعيداً فى بيته مثقفاً فى ذهنه مربياً لنفسه ، أن يرفع

مستوى زوجته وأن يجعل الثقافة جواً مألوفا فى البيت . فإذا كانت الجريدة والمجلة تصلان إلى البيت فى نظام لا ينقطع ، فإن حديث أعضاء البيت يرتفع من القيل والقال إلى السياسة العامة قطرية أو عالمية . وصحيح أن معظم مجلاتنا لا تسمو على القيل والقال . ولكن الزوج البصير يمكنه أن يناقش أعضاء عائلته فى الشئون الخطيرة و يوجههم فينتفع هو فى النهاية بهذا التوجيه . وعندئذ يجد العطف بل التقدير حين يقبل فى حماسة على ترقية ذهنه وتربية نفسه بثقافة عميقة قد لا تصل إليها الزوجة ولكنها لا تنكر قيمتها فلا تعارض فيما ينفق عليها من مال ووقت .

الرجعية المعارضة للثقافة

الرجعية هى فى لبابها دعوة إلى حل المشكلات الاجتماعية بالعقائد الجامدة الموروثة بدلا من التفكير الحر المبتكر . ففى مجتمع رجعى يعيش الفرد وهو خاضع فى بيته وحكومته وتصرفه لألوان من العادات كأنها شعائر دينية يجب ألا تخالف أو تنقض . وهذه الحال تنتهى به إلى أن يخضع فى تفكيره لقواعد وسنن يجب ألا يخالفها ، بل يجب ألا يتحدث عما يخالفها إذا خطرت له .

والرجعى يلجأ عادة إلى الدين فيستند إليه فى تعميم القراءة لهذا الكتاب ، أو منع البحث لهذا الموضوع . فالكنيسة الكاثوليكية مثلا تعين نحو مئة كتاب أو أكثر لا يجوز فى زعمها للمؤمنين بها أن يقرأوها .

وقد كانت هذه الكنيسة تأمر قبل قرنين أو ثلاثة بإحراق الكتب التى لا تحب كما فعل فرانكو فى أسبانيا وهتلر فى ألمانيا قبل سنوات . وقد ارتكبنا نحن فى مصر شيئاً قريباً من هذا فى بعض الكتب . وهذا الخزى الوطنى قد أوقعنا فيه رجعيون .

وفى كل أمة أفراد يؤثرون التفكير الأسلوبى الموروث ويلتزمون العادات ويخشون الابتداع . ومما يذكر عن جريدة التيمس التى تقرأها الطبقة الثرية فى انجلترا أنها كانت تقاطع كلمة « سفلس » إلى سنة ١٩١٦ . لأن هذه الكلمة اسم لأحد المرضين الزهريين المشهورين . ولما كانت الطبقة التى تجد التيمس قراءها بينها تتجنب هذه الكلمة فى حديث أفرادها الذين ربما يقعون فى هذا المرض ، فإن التيمس جارتهم فى هذا النفاق أكثر من قرن .

ويهمنا من الرجعية معارضتها للتثقيف الذى هو موضوع هذا الكتاب . فإذا كان المجتمع رجعياً لأنه مرهق بعبء ثقيل من التقاليد الموروثة ، وإذا كان رجال الدين رجعيين فإن الحكومة تستطيع بإنشاء المدارس وإباحة التفكير الحر أن تحيل هذه الرجعية إلى تجديد ونهضة . ولكن إذا كانت الحكومة نفسها رجعية فإن التجديد والنهضة بين المجتمع يحتاجان إلى جهد عظيم قد يعجز عنهما هذا المجتمع لأن بذرة التجديد وريح النهضة تحاربان من رجال الحكومة . وقد رأينا فى عصرنا كيف أن أمة متمدنة مثل ألمانيا وأمتين أخريين

قد أوشكتا بالحرية والتعليم أن تعمهما الحضارة — نعنى إيطاليا وأسبانيا — هـذه الأمم الثلاث قد أحالتهن حكوماتهن إلى أمم رجعية تحارب التفكير الحر وتحرق الـكتب بل ترد المرأة إلى المطبخ . وقد أوشك المجتمع فى هذه الأمم الثلاث أن يعود رجعيا ساقطاً بعد نهضته .

والناس يتنفسون بعقولهم كما يتنفسون برئاتهم وهم يحتاجون إلى حركة الفكر كما يحتاجون إلى حركة الهواء لـكى يصحوا وينتعشوا . ولـكنهم أيضاً يعتادون الأفـكار المحبوسة كما يعتادون الهواء المحبوس وعندئذ يمرضون فيفقدون صحة الجسم والعقل . فلـكى تنمو أذهاننا ولـكى نربى أنفسنا بالثقافة البشرية العامة يجب أن نعيش فى جو حر تكفل حريته وتصونها حكومة عصرية مستنيرة تعلم أنه ليس فى الطبيعة قرار وأن كل ما فيها يتغير . وأننا لم نصل إلى المجتمع الأمثل حتى نستقر على مؤسساته ونقول أنه ليس فى الدنيا ولن يكون أبدع منها . ولذلك يجب — لـكى نحصل على ثقافة حرة تربينا — أن نجيز النقد لجميع مؤسساتنا الاجتماعية وألا نضع أى قيد أو نعين أى حد يمنع التفـكير الحر .

والحـكومات الرجعية مثل حكومات ألمانيا وإيطاليا واسبانيا قد أحرقت الـكتب ووضعت غرامات باهظة على كل من يرغب فى إنشاء جريدة أو مجلة وجعلت للصحفيين والـكتاب عقوبات قاسية خاصة على ما ينشرونه . وهذا إلى قصر التعليم على عدد معين من الطلبة .

ولا يمكن شابا فى مثل هذه الظروف أن يربى نفسه لأنه لن يجد الـكتب الحرة النزيهة التى تربى ولن يجد الجرائد والمجلات التى تنير . فالشرط الأساسى للتثقيف الذاتى أن نعيش فى جو فـكرى يجيز التأليف وإنشاء الجرائد والمجلات بدون فرض غرامة مالية أو إيجاد صعوبات قانونية يقصد منها تقييد التأليف والنشر . ولا عبرة بالدعاوى التى تقال فى فرض هذه الغرامات أو وصفها بأنها ضمانات كما لا عبرة بدعوى الحماية للتقاليد لأن النهاية التى نصل إليها من كل هذه الدعاوى هى تقييد الحرية الفـكرية التى هى حق لـكل أمة عصرية لا يصح أن يمس أو ينتهك . بل هى حق لـكل فرد ضد أمته ولـكل أمة ضد حكومتها .

وحسب القارئ أن يعرف أن فنلندا يقل سكانها عن أربعة ملايين ومع ذلك بها ٢٠٩ من الجرائد اليومية و٥٥٧ مجلة أسبوعية وشهرية . ولـكل من هذه الصحف قوة التوليد فى الثقافة . هذا التوليد الذى هو الفرق الأساسى بين أمم الغرب الناهضة وأمم الشرق الناعسة .

تحصيل العيش والثقافة

ذكرنا جملة عوائق تمنع الثقافة أو لا تيسرها بالقدر الذى نرغب فيه . ويجب مع ذلك ألا يفوتنا ذكر عائق كبير هو تحصيل العيش فإن ٩٠ فى المئة من الأمة يعيشون فى قلق على عيشهم . وهذا القلق يحملهم هموما مختلفة تجعلهم ينفقون كل وقتهم تقريباً فى جمع المال لكى يطمئنوا على عيشهم هم وأولادهم . ونظام المباراة الذى نعيش فيه يجعل الاطمئنان على العيش مزعزعا ويجعل الخوف من المستقبل ماثلا . فالأب لا يعرف ماذا يكون مصير أولاده . بل لا يعرف هل يجد هو نفسه الشيخوخة الهنيئة . وهو حين يفرغ من عمله ويلجأ إلى بيته للراحة يجد أن جو المباراة الذى يكتنفه ماديا وروحياً قد انتقل إليه فهو يفكر فى الكسب ويحلم بالثراء حتى حين يكون فى فراشه .

وهذا الاتجاه المادى لإيثار الكسب على كل شىء وإرصاد الجهد والصحة والوقت لجمع المال يجعل الرغبة فى التثقيف الذاتى معدومة أو كالمعدومة . وكثيراً ما رأينا أشخاصاً قد حملتهم هستيريا الكسب على النفور من الكتب والكراهة للقراءة لأنهما يعوقانهم عن متابعة العمل الكاسب . وكلنا يعرف ذلك « العصامى » الذى يفخر بفاقته السابقة وثرائه الحاضر ويعدد صفات الاستقلال والرجولة والمثابرة التى يمتاز بها ولكنه مع ذلك جاهل لا يزال ذهنه فجاً غشيما لم يهذب أو يصقل كأنه ذهن حصان أو دبّ لا يدرى من شئون هذا الكوكب سوى تلك المعارف المحدودة التى تتصل بكسبه .

وليس شك فى قيمة المال فى عصرنا عصر المباراة هذا الذى يداس فيه المحرومون . ولكن يجب ألا نجعل جمع المال هوسا أو هستيريا . فإن غاية المال فى النهاية هى الاستمتاع بالمسكن والغذاء واللباس وسائر الاعتبارات الاجتماعية . والثقافة هى أسمى ضروب الاستمتاع .

وليس من السهل أن نجذب ذلك المنغمس فى الكسب المسحور بالمطامع المالية إلى الثقافة . لأنه فى الواقع فى حال من الاستهواء النفسى تحتاج إلى المعالجة السيكلوجية . وهو نائم يحتاج إلى الإيقاظ . وهو أعمى يحتاج إلى التبصير . فإنه تألف عادات نفسية وذهنية

تجعله غريباً عن مواطن الثقافة يتغطرس ويتعجرف كلما ذكرت له ميزات التربية الذاتية وترقية الشخصية والتوسع الذهنى .

ومثل هذا الشخص يجب أن نحتال عليه لكى نبعث الحرارة فى ذهنه البارد ونوقظه من بلادته وسباته ونشعره بالخجل إن لم يكن بالخزى من جهله . ونحن نعرف مثلا أن الأوساط تختلف فى إثارة التنبه الذهنى . فالوسط الزراعى مثلا يخلو من المنبهات الذهنية لأنه وسط الاستقرار . أما وسط المدينة فيحفل بالمنبهات للتغير الدائم فيه . ولذلك وطن الثقافة هو المدينة وليس الريف .

والأزمنة — كالأوساط — تختلف أيضاً فى قدرتها على التنبيه الذهنى . ففى زمن الحروب نقرأ الجرائد بشهوة حادة . وفى أيام الفتنة أو الثورة نحب أن نسمع ونقرأ ونرى . وفى أيام الغلاء والقحط والأزمات نتحدث عن المشكلات الاقتصادية ونحاول أن نفهم ونستنير

ونحن نعرف أيضاً أن الثرى للطمأنينة التامة يركد ويترهل ولكنه يتنبه عندما يحف به خطر اقتصادى أو تنزل به كارثة مالية . وقد يشرع عندئذ فى الدرس بعد حياة طويلة كانت مجللة بسواد الجهل .

والمغزى الذى نقصد إليه هو أن الباعث على التفكير والدرس هو مقدار معتدل من القلق . أى أن الطمأنينة يجب ألا تكون تامة . وهذا القلق نجده فى المدينة أكثر مما نجده فى الريف . وهو أكثر فى أيام الحرب والقحط مما هو فى أيام السلام والرخاء . وهو أكثر عند المشتغل بكسب عيشه مما هو عند الوارث المطمئن . على أنه يجب أن لا تمسك المعايش بخناقنا .

لأنه من الواضح أنه إذا كان القلق عظيما فإنه يمنع من التفكير السليم أو الرغبة فى الدرس . ولكنا نقصد إلى القلق المعتدل الذى يحدث لنا غمًّا أو همًّا . والنفس فى مثل هذه الحال تلجأ إلى الخيالات المضادة التى تحدث السرور . ونحن حين نفكر إنما نرتب هذه الخيالات ونجعلها تسير مع المنطق ونستعين بالدرس لكى نحسن التفكير ونصل إلى النتائج .

وهذا المنغمس فى تحصيل العيش الذى ينفر من الثقافة يجب أن ننبه ذهنه عن سبيل العمل الذى ينغمس فيه . بأن نحدث له قلقاً يستتبع غمًّا أو همًّا يحمله على التفكير والدرس

فإذا عمدنا إلى ثرى يكتنز النقود وتحدثنا إليه عن نزول النقد وأن الذهب لن يعود إلى التعامل وأن المبادئ الاشتراكية تعم العالم رويداً رويدا فإننا بلا شك ننبهه من ركوده ونبعثه على أن يتساءل : ما قيمة الاكتناز للثروة إذا كان مصيرها يوماً ما مصير المارك الألمانى سنة ١٩٢٢ ؟ وقد يحمله هذا على درس الاقتصاديات . ومتى شرع فإنه لن ينكص ومتى تنبه فإنه لن يركد .

وكذلك الشأن فى غيره من أولئك المنغمسين فى تحصيل العيش إلى حد إرصاد الوقت والجهد فى سبيله . فإننا نعالجهم عن سبيل انغماسهم . فنوضح لهم حيناً مقدار المنفعة التى تعود عليهم إذا درسوا وتوسعوا فى مهنتهم . وحينا نبين لهم الأخطار التى تتعرض لها هذه المهنة فى المستقبل بل ربما نحتاج إلى أن نبين أيضاً أن الوجاهة والمكانة والاحترام تنال كلها بقليل من الثقافة ولا تنال بكثير من المال الذى ترافقه جلافة الجهل .

ماهية الثقافة

الثقافة هى ما نفكر به . والحضارة هى ما نعمل به .

ولكن هذا التعريف ليس دقيقا . فإن من الصحيح مثلا أن معارفى أنا عن القوة الكهربية التى نستخدمها فى الإضاءة والحركة والاستماع الراديوفونى والرؤية السينمائية بل للتدفئة وللعلاج الشعاعى وغير ذلك — هذه المعارف هى ثقافة عندى . لأنى لا أمارس بيدى شيئاً من هذه الوسائل التى نستخدم بها القوة الكهربية . وقصارى ما أتصل به منها هو المعرفة الذهنية . ولكن المهندس الكهربى يعرفها حضارة وثقافة معا . لأنه يفكر و يعمل بها معا .

وفى مجتمع أمثل — لما نصل إليه — تصير الثقافة والحضارة شيئا واحدا فى كثير من الشئون . لأن جميع الناس يتعلمون و يرتقون فلا تكون هناك أشياء راقية يقرأون عنها فى الكتب ولا يرونها فى المعيشة .

أنظر مثلا إلى المتاحف تجمع بين جدرانها عشرات أو مئات الرسوم والتماثيل يدخلها الجمهور من أبواب عليها حرس فيتنزه المتفرج برؤية الألوان العديدة من الجمال الفنى . ثم يخرج بعد هذا الاستمتاع الثقافى إلى منزله حيث الحرمان من صورة أو تمثال . فهنا الثقافة تختلف من الحضارة . فإن الأولى مخزونة فى متحف . والثانية معروضة فى البيت .

ولكن المجتمع الأمثل هو الذى يجعل كل بيت من بيوتنا متحفا بل يجعل المدينة بشوارعها وجدرانها حافلة بالتماثيل والصور والمبانى الأنيقة . وعندئذ تكون الثقافة هى نفسها الحضارة .

ولكننا نعيش فى العصر الحاضر فى فاقة فنية لا نعرف من الفنون سوى صورها الفتوغرافية فى الكتب . أو نماذج منها فى المتاحف .

فنتحدث عنها ونناقش موضوعاتها كما يتحدث الفقير وهو يأكل من طبق المدمس عن الموائد المطهمة للأغنياء .

ولكن الثقافة — هذا التراث البشرى الذى تكوّن لنا فيما لا يقل عن خمسين ألف سنة — أى منذ اكتشاف النار — يجب أن نلم بها ونمتلكها بالدراسة . أى يجب أن نعرف تاريخنا وتاريخ الأرض التى نعيش عليها وتاريخ الأمم من الصين إلى فنلندا ومن أوغندا إلى ألمانيا ويجب أن نعرف العلوم والآداب والأديان التى استمتع أو امتهن بها الإنسان . ونحن فى هذه الدراسات لن نتجاوز التفكير . وصحيح أن تفكيرنا يؤثر فى الحضارة لأننا نخرج منه بأن نقول كما قال سقراط «لست أثينيا ولا يونانيا لأن وطنى هو العالم» . ولكن المعارف التى نجمعها لهذا التفكير تختلف من المعارف التى يجمعها المهندس الكهربى لتمديد أسلاك التليفون أو لإضاءة منزل . على أننا مع ذلك يجب أن نعترف أن الاختلاف هنا فى الدرجة وليس فى النوع . لأن المجتمع الأمثل هو المجتمع العالمى الذى يهتم بشئون العالم كله وليس بشئون قطر معين . وعندئذ تصير الثقافة البشرية جميعها تراثا عاما يجب أن يستمتع به كل من يسكن على هذا الكوكب . وعندئذ أيضا تصير الثقافة هى الحضارة.

ومنا قليلون يبلغون هذه الدرجة حتى فى عصرنا . حضارتهم هى ثقافتهم وثقافتهم هى حضارتهم . نعنى أولئك الذين تغيروا أو تطوروا حتى طابقوا بين مصالحهم ومصالح البشر . وأصبح لهم دين وتربى لهم ضمير . حتى ليفكر أحدهم بقلبه ويحس بعقله . ويهتم بشئون العالم كما يهتم بمصلحة نفسه وبيته ووطنه . وينظر من خلال المحن الاقتصادية فى الصين أو الهند أو مصر إلى لوحة التاريخ الكوكبى فينتهى إلى أن التطور ديانة وأن الجمود كفر . وأن الأخلاق يجب أن تكون منطقا مبتكراً يلائم الوسط وليست مجموعة من العقائد والشعائر المحنطة ومومياءات الأفكار القديمة . وحين نبلغ هذه الدرجة نعيش ولنا اهتمامات حيوية تنبه الضمير وتستفز الذهن إلى التفكير . ومتى وصلنا إلى هذه الحال عشنا فى الدنيا وعنينا بالدنيا وملكنا الدنيا نصلحها ونربيها كما يصلح ويربى أحدنا فى العصر الحاضر على المستوى المنخفض حديقته الخاصة .

وقد كان أفلاطون يقول : « إذا لم يعن الأبرار بالشئون العامة فإنهم يعاقبون على هذا الإهمال بخضوعهم لحكم الأشرار » .

ولكن العناية بالشئون العامة تحتاج إلى الثقافة العامة . والشئون العامة للرجل الناضج فى عصرنا هى شئون العالم كله . لأن العالم قد بات مرتبطا بحيث أن الشرّ فى الصين ينتقل

إلى مصر كما أن الوباء فى قطر يتفشى إلى أقطار أخرى .

فالصيانة العامة من الشرور والأمراض لا يمكن أن تتجزأ . والثقافة العامة وحدها هى التى تكفل لنا هذه الصيانة .

فلكى نعيش فى سلامة الضمير والجسم والذهن يجب أن نكون مثقفين . ننشد الثقافة العالمية لإيجاد حضارة عالمية .

قيمة الثقافة وغايتها

لن نحدد فى هذا الفصل قيمة الثقافة وغايتها . لأن جميع فصول هذا الكتاب تتناول هذين الموضوعين : وإنما نقصد هنا إلى إيضاح بعض النواحى البارزة لهما .

فللثقافة قيمة اجتماعية وعالمية و بشرية ، فالأمة التى تركد ثقافتها وتستحيل إلى قواعد وأساليب يركد مجتمعها وتقف جامدة بعيدة عن الرقى . وقد حدث هذا فى القرون الوسطى . بل إن هذه الحال لا تزال قائمة أيضا فى بعض الأمم فى أسيا وأفريقيا . والوسط الزراعى ، بالعجز الذى يشعره للمشتغلين بالزراعة والمنتفعين منها لأنهم لا يعرفون فى هذا الوسط طرقا جديدة للتطور ، هذا العجز يحدث جمودا فى الثقافة والحضارة . وقصارى ما نجد فى الوسط الزراعى ثقافة دينية تقليدية وآدابا أسلوبية . ولكن إذا كانت الأمة تمارس التجارة ، ونعنى التجارة العالمية أو التى تمتد إلى أقطار بعيدة ، مع اشتغالها بالزراعة ، فإن الاختلاط التجارى بالأقطار الأخرى ينبه الأمة ويبعث الحيوية فى الثقافة . وعند ما نتأمل القرون المظلمة فى أوربا بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ بعد الميلاد — نجد أنها ترجع إلى أن الثقافة بعد أن كانت عالمية أو كالعالمية أيام الرومان ، تجد التنبيه المتواصل من التجارة فى آسيا وأفريقيا ، قد عادت . فانحصرت فى القرية فصارت ثقافة زراعية دينية تقليدية .

وأكثر من التجارة فى تنبيه الثقافة هو الصناعة . لأنها فنون وعلوم مختلفة . ويمكننا أن نجزم بالقول بأن فى عصرنا الحاضر لا يمكن أمة أن تكون متمدنة ومثقفة إلا إذا كانت أمة صناعية . وحسب القارئ أن يقارن بين أمة تعيش وتتجر بزراعة الذرة والقمح وأخرى تعيش وتتجر بصنع الأتومبيل والراديوفون أيتهما أوسع معارف وثقافة ؟ وأين تجد العلوم المختلفة من الكيمياء إلى الفيزياء إلى الميكانيات إلى الكهرباء إلى غيرها ؟ لا شك أن هذه العلوم تجد وطنها فى الأمة الصناعية . وليس هناك سلاح أمضى عند الأمم القيصرية حين تريد أن تحكم شعبا وتستغله وتبقيه فى جهالة أبدية من أن تحرمه من الصناعة وتقصر نشاطه على الزراعة . لأن العلوم العصرية عندئذ لا تجد السوق التى تكسبها الثمن العالى وتبعث المنافسة على

تعلمها . ثم إن حرية الفكر تنمو فى الوسط الصناعى لأن قاعدته الابتكار والاختراع والمعارف . وهى تموت أو تركد فى الوسط الزراعى لأن قاعدته التقاليد والعقائد والسنن .

وهذا كله كلام عام عن الثقافة ، وكنا نحب أن نتوسع فيه ، ولكن غرضنا من تأليف هذا الكتاب هو قبل كل شىء الإرشاد العملى للشاب فى تثقيفه الذاتى . فنحن فى حاجة إلى أن نبرز له الفوائد التى تعود عليه من الثقافة حتى يجد فى هذه الفوائد الحوافز إلى الدرس واقتناء الكتب .

فنحن نثقف عقولنا لكى نجعل العمر البيولوجى يمتد إلى العمر الجيولوجى . أى أن العمر الذى لا يتجاوز ٧٠ أو ٨٠ عاما يعود بالدراسة ، وكأنه مليون عام . فالمثقف يدرس التاريخ البشرى . وما سبق البشر . ويعرف التطورات التى تغيرت بها الأرض والنبات والحيوان . وهذه الدراسة التى لن تنقطع مدى الحياة توحى إلينا قداسة دينية ورغبة فى الخير والرقى ، وتطلعاً إلى المستقبل مع التفاؤل وشعوراً ليس بالتضامن البشرى فقط بل باحترام الحياة كلها .

وكذلك نثقف عقولنا بدرس المشكلات العالمية والقطرية لكى نقف على « العقل العام » ونشترك فيه . فنميز هذه المشكلات بدراستنا أو نحمل لواء الكفاح فى حلها وتغيير المجتمع حتى يزول المرض والفقر والجهل والحرب والتعصب . وهذا « العقل العام » يجعلنا بشريين لنا اهتمامات فى نيويورك و بيكين و بومباى والقاهرة وباريس ، ويجعل كل إنسان منا إنسانياً .

وهذه الدراسة تكسبنا الشخصية المتطورة . ولن تستطيع أن تكون شخصاً متطوراً إلا إذا كنت دائم الدراسة تغير ذهنك بالمعارف الجديدة التى لا تفتأ تزودنا بها العلوم .

و بعد هذا يجب أن تذكر أنك ستصل يوما ما إلى الشيخوخة . وعلى الرغم من كل ما يقال ليس شىء فى هذه الدنيا أسوأ من الموت سوى الشيخوخة الهامدة المريضة الجامدة . وخير وسيلة نستعد بها للشيخوخة هى الثقافة . فيجب على كل منا أن يمهد الطريق الذى سيسير عليه فى المستقبل حين يتجاوز الستين . فإذا كنا قد عنينا أيام الشباب باعتناق الثقافة واعتياد الدراسة ، فإننا ندخل فى طور الشيخوخة ومسامّ عقولنا مفتحة لنا عشرات من الاهتمامات الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية والعلمية والأدبية . بل ربما تكون الثقافة قد

اختمرت وتبلورت إلى عمل وكفاح يجددان الحياة فى الشيخ ويجددان الأمة بنشاطه الناضج .

وما أهنأها شيخوخة عند ما ينظر أحدنا ، وقد بلغ السبعين ، فى فهرس حياته ، فيجد العناوين البارزة لما قام به من دراسة وكفاح حتى تكونت له شخصية ناضجة مؤلفة من الاستقلال الروحى والاستمتاع الفنى .

وما أتعسها شيخوخة يقضيها أحدنا فى المرض والجهل والجمود كأنه قد قطع صلته بالعالم . يقال من وظيفته فى الستين ، وكأنه قد أقيل من الحياة . فهو فى الحقيقة ميت قد تأخر دفنه . وذلك لأنه لم يثقف ذهنه أيام الشباب ولم يغرس فى ذهنه اهتمامات حيوية تغذو شيخوخته .

من هو الرجل المثقف

كان الرئيس ولسون رجلا مثقفاً درس الكتب وخبر الدنيا . كان مديراً لجامعة برنستون ينظم الثقافة لشباب الولايات المتحدة ، ثم كان رئيساً للجمهورية فى سنى الحرب . فحاول جهده أن يصون السلم ولكنه اضطر أخيراً إلى الحرب . فلما انتهت أو قبل أن تنتهى وضع الشروط الأربعة عشر التى كان « تقرير المصير » للأمم الصغيرة واحداً منها . وهو شرط قد انتفعنا نحن به فى حركة ١٩١٩ . ثم كان أثره كذلك كبيراً فى إيجاد عصبة الأمم . بل هى من مبتكرات ذهنه الخصيب المثقف .

فإذا تكلم الرئيس ولسون عن الثقافة ما هى وكيف تكون ومن هو الرجل المثقف فإنه لا يتكلم باعتباره رجل القلم والدرس فقط ، بل أيضاً رجل السياسة العالمية والخبرة الدنيوية . ثم هو رجل مثقف قد أثمرت الثقافة فيه خير ثمراتها ، إذ جعلته إنسانا إنسانياً يطلب الدنيا كلها وطناً له ويسعى للسلام وينشد الحماية للأمم الصغيرة من الأمم الكبيرة . فإذا قسناه باختباراته الماضية ومؤلفاته فى الجامعة أو بما انتهى إليه من الشروط الأربعة عشر أو اختراع عصبة الأمم فإننا نجد فيه أجمل مثال للرجل الشريف المثقف . ولهذا السبب لا نخطىء إذا نحن اعتمدنا عليه فى صفة الرجل المهذب وهو حين يصفه إنما يصف نفسه .

فقد وضع الرئيس ولسون أربعة شروط للرجل المهذب هى :

١ — أن يعرف تاريخ العالم منذ بداية الكون فنشأة الحضارة إلى الآن .

٢ — أن يعرف تاريخ الأفكار السائدة التى يسير عصرنا على مبادئها .

٣ — أن يعرف علما من العلوم فى المعنى الذى يطلق عليه اسم Science فى اللغات الأوربية

٤ — أن يعرف لغة ما وخير اللغات التى يعرفها هى لغته التى نشأ عليها .

* * *

هذه هى الشروط الأربعة للرجل المهذب أو الرجل المثقف كما يراها الدكتور ولسون . ويمكن كلاً منا أن يسأل نفسه : هل أنا مهذب وهل قد استوفيت هذه الشروط الأربعة أو هل أنا نصف أو ربع مهذب لم أستوف غير شرط أو شرطين من هذه الأربعة ؟

ولكن ربما يتساءل بعضنا لماذا هذه الشروط الأربعة ولماذا لا تكون عشرة أو سبعة ؟ فالجواب أن الدكتور ولسون قد اختار الأهم قبل المهم واختار الأساس قبل الجدار والأعم قبل الأخص . ونستطيع أن نبين أهمية هذه الشروط بالشرح القليل . فإن الذى يطلبه الرئيس ولسون أن تثمر هذه الثقافة التى يحددها فى هذه الشروط رجلا صالحا فى العالم باراً بالإنسانية . وهو يبرها فى ذهن نير . ثم يجب أن يفهم مبادئ الحضارة الحديثة ولا يعارض تقدمها بل يجب عليه أن يكون عضواً عاملا فى تقدمها .

فالشرط الأول أن يعرف الرجل المهذب تاريخ العالم . كيف نشأت الحياة الأولى على الأرض ثم تطورت رويداً رويداً حتى ظهرت فيها أنواع من النبات والحيوان ينقرض بعضها ويبقى بعضها وهى فى خلال هذا التطور تنهض وتنتكس إلى أن ظهر الإنسان . وهو مع ذلك ليس ختام الدرامة . ثم كيف تسلط على غيره إلى أن استطاع أن يخترع الحضارة الأولى على ضفتى هذا النهر المبارك نهر النيل .

ثم كيف نشأت الحضارة وتطورت وهى تعانى مظالم الكهنة والمستبدين ورزايا الحروب وبلايا القحط والوباء . وفى خلال ذلك يكتشف هذا الإنسان الأول أن له ضميرا وأن حبه لأمه وزوجته وأولاده يتسع حتى يصير حباً للبشر جميعهم .

وجدير بهذا الذى يدرس تاريخ العالم أن يشعر أنه ابن العالم وأن البشر أخوة وأن الحرب جناية . ثم هذا العرض لتاريخ الدنيا يكسبنا فكرة التطور ثم مزاج التطور لأن الدنيا لم تكن قط على حال واحدة إذ هى تتغير ويجب أن تبقى فى هذا التغير . ثم هذا التاريخ إذا بعث فى نفوسنا الاطمئنان من ناحية البر والخير فى نفس الإنسان ، فإنه يبعث الشك والتوجس من ناحية النظم الاجتماعية التى انتهت مرة بل مرات بالعصور المظلمة . وما أدرانا فلعلنا هذه الأيام على وشك الدخول فى عصر مظلم . فلا أقل من أن نعرف علاماته ونحتاط بدرس تاريخ العالم ونميز بين سيادة العقيدة الحزبية وسيادة الرأى الجدلى .

ثم هذا الدرس لتاريخ العالم يعين لنا سمات الحضارات المتعاقبة وألوان الجمود والرقى فيها إلى أن تنتهى إلى الحضارة الصناعية القائمة .

والشرط الثانى للرجل المهذب أن يعرف تاريخ الأفكار السائدة سواء أكانت سياسية

أم اجتماعية أم علمية . فنحن فى عصرنا الحاضر نسير بقوة آراء تسوقنا وترسم لنا خططا وغايات . فيجب أن نعرف تاريخ هذه الآراء والجهود التى بذلت فى سبيل تحقيقها والقوات الخفية التى تسوقها .

فهناك هذا الرأى أو الفكرة القائلة بالديمقراطية كيف وأين نشأت وما قيمتها وما دلالتها وهل يجب أن تموت أو تعيش ؟ ثم ماهى قيمة الحرية الفكرية أو التسامح الدينى أو فكرة الدستور أو غير ذلك فى الأفكار والآراء التى غاص الناس من أجل تحقيقها فى بحار من الدماء وهل كانت جهودهم حسنة أدت إلى خدمة البشر ؟ و إذا كان الأمر كذلك فهل هى تستحق العناية من المستمتعين بها والجهد لصيانتها أم تترك للمستبدين والجامدين والرجعيين لكى يمحوها من لوح التاريخ البشرى ؟

وهذه الأفكار أو الآراء التى تسود الحضارة الراهنة لا تكاد تحصى . فإننا نؤمن مثلا بفكرة الجامعة للتعليم وفكرة التعاون للعمال وكذلك بفكرة النقابة كما نؤمن بحرية المرأة . وفكرة « تقرير المصير » إحدى هذه الفكرات الخصبة المثمرة .

والشرط الثالث للرجل المهذب أن يعرف علماً من العلوم الحديثة وذلك لأن الحضارة الصناعية القائمة فى العالم الآن تستند إلى أساس قوى من الثقافة التى أثمرت الغازات الفاتكة من ناحية كما أثمرت الأقمشة والأسمدة الصناعية لتوفير الغذاء والكساء . وهى شر وخير . ولا يمكننا أن نفهم مغزاها إلا إذا فهمنا علماً من العلوم ، وميزة العلم أو صفته أنه يمكن أن يقاس سواء أكان القياس بالمتر أم بالجرام أم باللتر . وما لا يمكن قياسه فهو ليس علماً .

وليس شىء من الصناعات الحاضرة إلا وقد أغار عليها العلم ووسع نطاق الانتفاع بها . فنحن نجده على السواء فى أناء الطبخ للطعام كما نجده فى جهاز الميكروفون ونجده فى زراعة البرسيم كما نجده فى تحليل الضوء المنبعث إلينا من المجرة . ونجده فى وفيات الأطفال كما نجده فى صنع الطائرات .

والرجل الذى يثقف نفسه بالثقافة العلمية ينطبع فى نفسه المزاج العلمى . فهو يعتمد على القياس والتجربة . وهو لا يستسلم حتى لمنطق الذهن المجرد لأنه لا يقنع بالتفكير فقط بل يزيد عليه التجربة باليد . فهو يفكر بذهنه ويده . وهو لهذا السبب لا يرفض تصديق القصص

عن العفاريت ومناجاة الأرواح وقراءة الكف وفراسة الوجه وطالع الحظ وما إلى ذلك فقط ، بل هو لا يعرف كيف ينصت مستمعاً إلى هذه القصص والأساطير لأن مزاجه العلمى قد بعث فيه اشمئزازاً ذهنياً من هذا السخف . والرجل الذى يجهل أحد العلوم لا يصح أن يعالج دراسة ما لأنه يعالجها عندئذ بروح الجاهل الذى يخشى خطره لأنه يعتمد على استنتاجات لا تؤيدها التجربة .

أما الشرط الرابع للرجل المهذب فهو أن يعرف لغة ما معرفة مثقفة . وتفضل لغته الأصلية التى نشأ عليها . وهذا شرط لا غنى عنه لأن التفكير الحسن لا يستطاع بلا مدخر كبير من الألفاظ بل نحن لا يمكننا أن نفكر بدون الألفاظ حتى أن أحد السيكلوجيين وهو الدكتور واطسون يقول أن التفكير هو كلام صامت كما أن الكلام هو تفكير صائت . وهناك ما يرجح صحة هذا القول . والذى يلاحظ أن لكل شخص ألفاظه التى تكثر فى حديثه أو فى كتابته وهى بالطبع تدل على اتجاه تفكيره ولونه إذ هو يختار الألفاظ التى تعبر عما يشتغل به ذهنه فإذا كان تافه التفكير كانت الألفاظ كذلك . وقد كان هربرت سبنسر يقول أنه يمكنه أن يعرف وزن الرجل الذهنى عقب استماعه لحديثه لأنه يعرف من الألفاظ التى يستعملها أى الموضوعات تشغله وكيف تشغله .

وأحسن اللغات التى يجب أن نتعلمها ونتقنها هى اللغة التى رضعناها من أمهاتنا . وهى اللغة التى نستطيع أن نتقنها . ومن السخف أن نتعلم لغة أجنبية نصف تعلم أو ربع تعلم . لأن اللغة وسيلة غايتها القراءة والاستنارة المتوالية فإذا لم نعرفها حق المعرفة لم ننتفع بها . ومن هنا الخطأ الفادح فى تعليم أولادنا لغتين أجنبيتين حين كان يمكن الاقتصار على واحدة ربما يستطاع إتقانها فتعتمد للتثقيف .

***

هذه هى الشروط الأربعة للرجل المثقف كما رآها الرئيس ولسون . وهى جديرة بأن تثمر فى صاحبها أحسن الثمرات فتحركه إلى العمل وتجعله داعية للحق والإصلاح والرقى . فإن الرجل المثقف لا يطيق الظلم ولا يرضى بالجمود لأن ثقافته قد امتزجت بدمه وأصبحت جزءاً من روحه وإرادته . وهو لا يمكنه أن يحبس فى نفسه أفكاراً عن الرقى والإصلاح

قد اختزنها ذهنه بالقراءة أو التفكير فى حين يرى الوسط حوله وهو ينادى بل يصرخ بالحاجة إليها . فهو لا بد مناد أيضاً بها ولو اصطدم فى ذلك بالعقبات التى تؤذيه فى عيشه . وهذا الروح الشريف هو روح الاستشهاد فى سبيل الحق والشرف والرقى الإنسانى .

ومثل هذا الرجل المهذب لا يمكنه أن يمالئ الاستبداد لأن ذهنه حافل بالجهود التى بذلت فى سبيل الحرية . ولا يمكنه أن يتعصب لفكرة ما أو مذهب ما تعصب الاضطهاد والكراهة لأنه يعرف قيمة التسامح فى تاريخ البشر . ثم هو يكره الحرب لأن تاريخ العالم قد أشعره بالأخوة البشرية . ثم هو إذا كان علمياً فى مزاجه التفكيرى فهو متدين فى مزاجه العاطفى يحب الرفاهية ويرجو الخير لمستقبل الإنسانية .

فما عندك من هذه الشروط الأربعة ، وماذا أثمر فيك ما عندك منها ؟

ثقافة بشرية

يعيش البشر فى القرن العشرين وهم مرتبطون بروابط اقتصادية كثيرة الاشتباك . فالبيت العادى فى القاهرة أو باريس أو نيويورك — ونعنى البيت المتمدن — يحوى من المحصولات والمصنوعات بما لا يمكن جمعه إلا من خمسين قطراً أو أكثر . وهذا الارتباط الاقتصادى قد جعل المواصلات تزداد فى الوسائل كما جعل هذه المواصلات تزداد فى السرعة . والرجل المتمدن يحس لهذا السبب أن وطنيته كوكبية وليست قطرية . وهذا الإحساس يزداد حدة وقوة بتطور الثقافة الذى غرس فى قلوبنا روحا بشريا جديداً يشعرنا بأننا عائلة واحدة نملك هذا الكوكب الذى نعيش عليه وليس لنا غيره وراء السحاب نستطيع أن نعلق عليه آمالنا كما كان يفعل أسلافنا .

والجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية والكتاب بل كذلك السينماتوغراف والراديوفون — كل هذه تذكرنا بأننا مرتبطون بجميع البشر فى أنحاء العالم . ونحن نقرأ الحوادث فى بكين أو توكيو أو ريود وجانيرو بنفس الاهتمام الذى نقرأ به الحوادث فى الإسكندرية أو أسيوط . لا لأننا نحس فقط أن لهذه الحوادث « الأجنبية » صدى فى وطننا بل لأننا تعودنا النظرة العالمية . وربما كان للحرب الكبرى الماضية ولهذه الحرب القائمة أثر عظيم فى إيجاد هذا المزاج العالمى فى كل منا . فإن التطور الصناعى — ثم الحربى — قد جعل كل حرب أجنبية حربا أهلية عند جميع الأمم فى هذا العالم . والمصرى المثقف فى عصرنا يناقش الديمقراطية والفاشية والاشتراكية والحرب والسلم والدين باهتمام كبير حتى ولو لم يجد لهذه المبادئ أثراً عملياً فى وطنه فى الوقت الحاضر . فنحن نتطور فى السياسة والاجتماع من النظرة القطرية إلى النظرة العالمية . وهذا التطور يجرى على الرغم منا . وقد كان كارل ماركس يقول « أن الحرب هى قاطرة التاريخ » أى أن التاريخ يسرع خطواته فيها . وهاتان الحربان قد عملتا على نقلنا ، أو على الأصح نقل المثقفين والأذكياء منا ، إلى الآفاق الرحبة فى اهتماماتنا حتى صارت مشكلات القارات الخمس مشكلاتنا الوطنية .

وبكلمة أخرى نقول أن ظروف العالم الاقتصادية والاجتماعية والحربية وما اتفق لنا

من وسائل سريعة للمواصلات — ثم هاتان الحربان وامتدادهما السرطان إلى كل قطر تقريبا — كل هذا قد حملنا على أن نعتنق ثقافة عالمية كما كان أسلافنا يعتنقون الأديان الجديدة . فنحن بقوة هذه الظروف وضغطها فى « بشرية » جديدة تحملنا على الشعور بالأخاء والتضامن والرغبة فى الخير والرقى .

والرجل المثقف فى عصرنا ليس هو ذلك الذى يدعو إلى ثقافة عربية أو انجليزية أو المانية وإنما هو الذى يعتنق ثقافة كوكبية لا هى شرقية ولا هى غربية ، وإنما هى ثقافة هذا الكوكب وهى ثمرة المجهود البشرى منذ ربع مليون سنة إلى الآن . يدرس تاريخ الصين ومصر وروسيا وغيرهن لأنه تاريخه هو . وهو يدرس الجغرافيا فى آسيا وأمريكا وغيرهما لأن هذه القارات هى ملكه والعالم هو قريته التى يحق له ويجب عليه أن يعرفها ويطلب إصلاح دروبها وخططها . وهو يتحمس لحرية الهند والصين كما يتحمس لحرية وطنه وهو يشتغل بالعلوم ويرقيها لأنها تحقق لنا الفتوحات الرائعة التى لم يفتح مثلها الإسكندر أو جنكيزخان لأننا نطرق بها أبواب المستقبل ونتسلط بها على ما كان يسميه أسلافنا القدَر .

والغاية من الثقافة البشرية هى الفهم أولا . وذلك بأن نتصل بالعقل العام ذلك العقل العالمى المتطور الذى يرود المجاهل ويخترع تلك المخترعات الاجتماعية والآلية التى تغير الدنيا ثم بعد ذلك نسلك السلوك البشرى الذى لا يرتبط نفسيا بوطن أو مذهب سوى وطن العالم ومذهب البشرية . أو بكلمة أخرى نقول إن غاية الثقافة أن نجعل الإنسان إنسانياً . والآن قد يسأل القارئ : على الرغم من الظروف العالمية العصرية التى تجعل ثقافتنا بشرية كوكبية ما هى الدراسة التى يجب أن تتبع لكى نبلغ أحسن النتائج فى هذه الثقافة ؟

وسيرى القارئ الإجابة على هذا السؤال مبسوطة فى الفصول التالية . ولكنا نقول هنا أن الشاب المصرى يحتاج إلى أن يدرس :

١ — مشكلات العصر الحديث الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لأنها خير الأبواب التى نفتحها لدراسات أخرى . والسبيل الأول لهذه الدراسة هو الجريدة .

٢ — يجب أن يدرس علما معينا من العلوم العصرية لكى يقف على كنه العوامل التى تغير الدنيا .

٣ — وبعد ذلك عليه أن يدرس تاريخ هذا الكوكب بجميع أممه وأقطاره منذ أن

انفصلت الأرض عن الشمس إلى أن وقف هتلر يخطب ويحارب للدعوة النازية . وهذا المجهود يبدو عظيما مرهقا . وهو كذلك فى الوقت الحاضر للروح الانفصالى العام بين المثقفين فى التاريخ حين يكتبون تاريخ كل أمة . ولكن كتابا مثل كتاب هـ . ج . ولز فى التاريخ العام يدلنا على أنه من الممكن أن ندرس تاريخ كوكبنا بسهولة .

٤ — ثم يجب أن يدرس الأديان — جميع الأديان — التى تغيرت بها النفس البشرية منذ الأساطير الأولى التى آمن بها الإنسان البدائى إلى المذاهب الفلسفية الجديدة التى تحاول أن نجعل المعرفة أساسا للإيمان بدلا من العقيدة .

٥ — وعلى الشاب المصرى أن يدرس لغة أجنبية متمدنة لكى يستعين بها على الاتصال العالمى . لأن لغتنا مع الأسف ناقصة . فالعلوم مثلا لاتزال خرساء فى اللغة العربية . ولا يمكن شابا أن يحيط بعلم من العلوم العصرية إذا اقتصر على اللغة العربية . وخير اللغات الأجنبية هو الانجليزية والفرنسية والألمانية ، ولكن هذه الأخيرة شاقة تحتاج إلى مجهود كبير لدراستها . وعلى ذلك فإن إحدى اللغتين — الإنجليزية والفرنسية — تكفى للاتصال بشئون العالم والاتجاه البشرى الذى يوسع آفاقنا ويكبر شخصيتنا ويكسبنا السلوك البشرى .

لا نقرأ بل ندرس

لما كنت فى المغرب الأقصى وجدت هناك كلمة « طالب » يستعملها الجمهور لمن نسميه فى مصر « عالم » . وعندى أن هـذه الـكلمة أصح فى المعنى والمغزى من كلمتنا ، لأنها تحمل معنى الدرس والتطور والرقى وأن أحدنا مهما بلغ من الثقافة لا يزال طالبا يدرس و يتعلم ولا يعتقد فى نفسه الـكمال أو التمام . والإنجليز يؤثرون هذا المعنى حين يصفون الرجل المثقف بكلمة « سكولار » التى تعنى الطلب والجهد .

وما أحرانا بأن نستعمل هذه الـكلمة . فإن كل إنسان يجب أن يكون طالباً طيلة حياته وأن يموت كما مات الجاحظ « وعلى صدره كتاب » .

والطالب لا يستهتر ولا يقرأ جزافا وكما أننا نحتقر الاستهتار فى السلوك ونطالب كل رجل بأن يلتزم الجـد و يقصد إلى غايات شريفة فى معيشته كذلك يجب أن نطالب القارئ بأن يقرأ جادا وأن يعين قصداً لدراسته . وهو حين يتجه هذا الاتجاه يجد أنه فى غنى عن قراءة القصص السخيفة وعن قراءة هذه الغوغاء من مجلات القيل والقال التى تستهلك الوقت والمال وتحارب الذكاء .

والفرق بين القراءة والدراسة هو أن الأولى يقصد منها عند جمهور القارئين اللهو وقضاء الوقت أو قتله . أما الدراسة فتحتاج إلى مجهود بغية الانتفاع . ولـكن الحقيقة أن الدراسة عادة واتجاه . إذا نحن تدربنا عليها وتعبنا فى البداية لا تلبث أن تثبت وعندئذ تصير أيضاً استمتاعا عاليا يفوق ما نسميه اللهو بالقراءة الجزافية . وأنواع الاستمتاع فى مجتمعنا كثيرة منها ما ينحط إلى الترهل وأكل اللب والقعود على القهوة لتأمل العابرين ومنهـا ما يرتفع إلى الألعاب الرياضية أو رؤية الدرامة أو التنزه فى الريف . فالنوع الأول من الاستمتاع لهو سخيف يشبه القراءة الجزافية ليس له غاية والمستمتع لا يحس أنه يرقى بلهوه . أما النوع الثانى فيشعر الغاية والانتفاع بالصحة أو الرفاهية الذهنية .

وكذلك الحال فى القراءة والدراسة . فالأولى لهو بلا غرض . والثانية استمتاع له هدف الرقى . والانتقال سهل بالتدريب لأن الدراسة تعود بعـد ذلك مزاجا لا يحتاج إلى جهد .

فالجريدة التى نفطر بهـا فى الصباح تقرأ عندئذ مع القلم الأحمر والمقص إلى جنب الخارطة أو المعجم السياسى . والـكتاب تعلق عليه الانتقادات والشروح بل تؤخذ منه التلخيصات .

ونحن حين نقرأ بالقلم نشارك المؤلف فى كتابه لأننا نناقشه فى غضون القراءة . وربما نصل إلى تفاريع ذهنية لم يصل هو نفسه إليها . وقراءتنا عندئذ إيجابية عاملة وليست سلبية عاطلة . فنحن لا نتلقى وننطبع بل نفكر ونطبع الـكتاب . ويجب على القارىء ألا يستسلم للوهم بأن الشعر والأدب لا يدرسان بل يقرآن فقط . فإن العكس هو الصحيح . ولسنا هنا ننكر أننا حين نقرأ قصة عالية لمثل تولستوى أو دستوفسكى لا نستطيع أن نمسك بالقلم ونتابع المؤلف من صفحة إلى أخرى بالتعليق ولـكن عجزنا هنا عن التعليق ليس برهانا على أن الأدب العالى ليس فى حاجة إلى التعليق وأنه استمتاع مصفًّى كالإصغاء للموسيقا . لأن الواقع أن الموسيقى العبقرى يستطيع أن يعلق على أى لحن من الألحان الساحرة بما يملأ عشرات الصفحات . وكذلك الشأن فى التعليق على الأدب . فإننا يجب أن نقرأ قصة من تولستوى وتستسلم للسحر الفنى كما لو كنا نصغى إلى لحن مقدس فى صمت وسكون . ولـكن بعد قراءة الـكتاب يجب أن نحلل ونؤلف فى القصة ونبحث كيف رفعنا الـكاتب إلى السماء فى هذه الصفحات وكيف جعلنا نحس دينا جديداً فى هـذه الصفحات الأخرى . وبكلمة أخرى يجب أن ندرس القصص العالية كما ندرس أى كتاب دينى لأنها هى أيضاً من الدين . وكل دين يحتاج إلى نقد وشرح . وإذا تعودنا الدرس وصار مزاجا عندنا فإننا نتوخى من الجريدة والـكتاب التنبيه بدلا من التخدير . بل عندئذ لا نطيق أن نقرأ صفحة من مجلات القيل والقال أو القصص السخيفة إذ ليس فيها ما يدرس . ثم تغدو دراستنا نظامية لها برنامج وفيها اتجاه أو اتجاهات لغايات نتدرج فيها ونرقى بها .

ويجب على من ينشد الثقافة ألاّ يترك كتابا قد قرأه إلا وله عليه حكم وذلك بأن يقتنى كراسة لتلخيص كل ما يقرأ حتى إذا انتهى من تلخيص كتاب حكم عليه واثبت الوجوه التى انتفع بهـا منه وهل كان يساوى الوقت والمال اللذين انفقهما فيه أم كانت قراءته ضرراً أكيداً . وليس فى الدنيا كتاب يعلو على هذا الامتحان . فنحن نقرأ وندرس لـكى ننتفع ونرتفع ولـكى تتسع آفاقنا الذهنية وتتربى نفوسنا وتستنير رؤيانا ونستمتع بالدنيا . فإذا

لم يكن شيء من هذا فإننا يجب أن نأسف على قراءتنا وأن ننصح لغيرنا بألا يقع فى الخطأ الذى ارتكبنا بقراءة كتاب سخيف .

ولو أن المؤلفين عرفوا أن القراء سوف يمتحنونهم بهذا الامتحان الدقيق لما استهتروا فى التأليف . وكذلك لو عرف المحررون للجريدة والمجلة أن القراء يطلبون أن ينتفعوا أو يرتقوا بقراءة ما يكتبون لعمدوا هم أنفسهم إلى الدرس وحاولوا ألا يكتبوا سوى ما ينفع ويرفع .

فلتكن الدراسة — بدلا من القراءة — عادتنا ومزاجنا إذا شئنا أن نثقف عقولنا ونربى أنفسنا .

لنكن موسوعيين

نعنى بكلمة « الموسوعة » ما يسمى عادة « دائرة معارف » . وهذه العبارة الثانية ليست تسمية و إنما هى تعريف للكلمة الأولى . ونستطيع أن نقول أن هذا الكاتب موسوعى أى أنه يتناول فى كتاباته موضوعات كثيرة مختلفة ومتنوعة . وكثير من كتاب عصرنا قد ارتفعوا إلى هذا المستوى فالكاتب الأديب يدرس العلوم والعالم يفلسف ويكتب فى الأدب أو الفلسفة أو العلم سواء .

وعلى الشاب الذى يتوخى الثقافة أن يدرس جميع المعارف البشرية ولسنا نقصد من هذا القول إلى أنه يجب أن يقرأ أو يدرس جميع المؤلفات . ففى المتحف البريطانى مثلا نحو أربعة ملايين كتاب . وليس من المعقول أن ننصح بدراستها . ولكنا نعنى ألا نتخصص ونتضيق بل « نتعمم » ونتوسع . فإن المعارف البشرية مرتبطة ، ولن نستطيع أن نفهم الحضارة العصرية حق الفهم إلا إذا ألممنا بهذه المعارف وعرفنا القواعد التى تنبنى عليها المبادئ التى تسير على ضوئها . وقد يعترض هنا بأن هذا الاتجاه الموسوعى ينتهى إلى أن نكون سطحيين حطابين نجمع من هنا وهناك . ولكن الذهن البشرى ليس آلة ميكانية يتقبل ويرتسم وينطبع . بل هو جسم حى يقبل ويرفض . ولا بد أنه ستنشأ بينه و بين المعارف علاقة فسيولوجية كما بين المعدة والطعام . وهو لذلك سينتهى بالتخصص والتوسع فى بعض المعارف دون غيرها . لأن للأولى اتصالا حيويا أو فسيولوجياً بكيانه النفسى وجهازه الذهنى . ثم هو يتعرف إلى سائر المعارف عن بعد تعرفا سطحياً أو كالسطحى على قدر مساسها بكفاءاته واتجاهاته واهتماماته .

وفى مجتمع ديمقراطى كالذى تعيش فيه الشعوب المتحضرة ، وهو أيضاً الذى نتوخى تحقيقه عندنا ، يحتاج الشعب إلى تناسق فكرى . فلا يكون جهل وحماقة إلى جنب المعرفة والحكمة . لأن نتيجة هذا التفاوت تؤدى إلى أن يعرقل بعض الشعب تلك الإصلاحات أو التغيرات التى يطلبها بعضه الآخر المستنير لأنه لجهله لا يدرى قيمتها . فقد يقترح وزير مثلا تعقيم بعض الناس حتى لا يتناسلوا فيرث أبناؤهم عاهاتهم أو قد يقترح آخر تقديم اللبن بالمجان لتلاميذ

المدارس . ففى الأمم الديكتاتورية تكفى إرادة الديكتاتور لسن هذين القانونين . ولكن الأمم الديمقراطية تحتاج إلى رأى الشعب . فإذا لم يكن أفراده مستنيرين بثقافة عامة عن البيولوجية والطب فإنهم فى الأغلب يعارضون الإصلاح .

هذه هى القيمة العامة للشعب من التوسع الثقافى . ولكن هناك قيمة شخصية للفرد . وهو أنه يفهم الحضارة التى يعيش فيها حتى يلتئم بها ولا يصطدم بالغريب فيها ويحسبه لجهله ضاراً أو زائداً . فنحن مثلا نستخدم الأتومبيل ونستعمل التلغراف والتليفون ونستمع إلى الراديوفون ونركب القطار أو الطائرة أو الترام ، ونسكن المبانى الكبيرة أو الصغيرة ونستمتع برؤية التحف من تمثال أو رسم ونقتنى الأثاث الفاخر ونتعالج بالطب . وليس من المعقول أن ندرس العلوم الكيماوية والبيولوجية أو الميكانية والفيزيائية التى تحتاج إليها هذه الأشياء كما ليس من المعقول أن يطلب من أحدنا — وهو غير متخصص — أن يعرف علم الجراحة وفنها ، أو أن يركب أتومبيلا ويصلح تليفونا إذا حدث به خلل أو تعطل . ولكن المعقول أن يعرف كل منا المبادئ العلمية التى يهتدى بها الطبيب والمهندس والمعمار والقاضى كما يجب أن يكون كل منا أديبا وفنانا إلى حد ما حتى ولو لم يحترف الأدب أو الفن . فنحن مثلا حين نقصد إلى النجار الذى يصنع لنا الأثاث يجب أن نعرف شيئاً عن الخشب وأنواعه النفيسة والخسيسة . وإلا كنا عرضة للغش . وكذلك يجب أن نكون على شىء من الذوق الفنى والدراية بالأطرزة العصرية فى الأثاث وإلا صرنا أيضاً عرضة للسقوط فى جلافة فنية لا تغتفر . وكل هذه المعارف لا تؤدى بنا ولا تؤهلنا لأن نكون نجارين .

وكذلك الشأن فى المعارف الأخرى . فإننا حين ندرس مبادئ الطب أوالهندسة أو البناء أو الكيمياء أو الزراعة لن نحترف هذه العلوم . ولكنا نعرفها ونلم بمبادئها لكى نعرف الحضارة التى نعيش فيها ونعين القيم التى نهتدى بها فى تقديراتنا الاجتماعية والروحية . وعندئذ نستطيع أن نرتأى الرأى السديد المبنى على المعارف فى أى مشروع يعرض علينا لمصلحة الأمة أو أى طائفة منها . ونستطيع أن نفهم النظام الذى يسعد به ناس ، والفوضى التى يشقى بها آخرون . وقد نشقى بها نحن أنفسنا وعندئذ لا تكون شكايتنا خاصة بنا بل عامة للشعب بل ربما للعالم كله .

فلنكن إذن موسوعيين . ندرس التاريخ والأدب والفلسفة كما ندرس الاقتصاديات والاجتماع والكيمياء والأصول العلمية التى بنيت عليها الحضارة الصناعية القائمة . والرجل الذى يقصد من الثقافة إلى أن يكون موسوعياً يجد بعد سنوات من الدراسة أنه انتقل من الركود إلى الجهاد ومن الجمود إلى التطور . لأنه يجد فى مجموعة المعارف البشرية الحاضرة ما يمكن أن يغير الدنيا إذا استعمل فى خدمة البشر . والمعرفة قوة انفجارية لا تطيق الحبس . ومن هنا كراهة الحكومات القيصرية للتعليم بل محاربتهن له .

وعندما نكون موسوعيين نصبح أيضاً عالميين . فلا ننشد الرقى المادى فقط لوطننا بل ننشد تلك المثليات العالمية الكبرى فنحقق لأنفسنا الرقى الروحى بالجهاد لهذه المثليات . وتتكون لنا ، بكل ذلك ، شخصية جهادية متطورة .

الهواية فى الثقافة

إذا نشأت الثقافة هواية يهواها الصبى فى المدرسة ثم ينشأ عليها شابا فإنها ستلازمه إلى الكهولة فالشيخوخة . ومعظم الأوربيين فى أمريكا وروسيا وألمانيا وفرنسا ينشأون ولهم غرام بالثقافة لأنهم تعودوها من الصبا بل من الطفولة . ولكن الحال ليست كذلك فى مصر . لأن الطفل لا يجد من الكتب المغرية ما يجعله يهوى الثقافة فى طفولته ثم فى صباه . وهنا يجب أن نشيد بما يقوم به الأستاذان كامل كيلانى وأحمد عطية الله وأمثالهما فى تزويد صبياننا بالكتب التى تجعلهم يقرأون ويفكرون . ولكن هذا المجهود يجب أن يضرب فى ألف حتى يفى بالغاية .

ويجب على الآباء أن يشجعوا صبيانهم على اقتناء الكتب والاشتراك فى المجلات وقراءة الجرائد . حتى تصير هذه الأدوات بعض الجو الحضارى الذى يعيشون فيه ولا يمكنهم فى المستقبل الاستغناء عنه . كما يجب أن ينفقوا على الهواية الثقافية التى يتعلق بها الصبى حتى يحثوا ذكاءه على الالتماع ويبعثوا نشاطه على التفكير . وبعض الآباء يبخل على ابنه أو ابنته بالنفقات لهذه الهواية أو يضن بوقتهم لكى لا يضيع فى دراسة ليس لها قيمة فى الامتحانات والشهادات . ولكن هذه الدراسة هى التى ستعيش وتبقى مع الصبى إلى حين يصير رجلا وشيخاً . وهى التى ستجعله إنساناً إنسانياً حين ينسى ما تعلمه فى المدرسة أو الجامعة من دروس لعله لم يكن يقصد منها سوى الاحتراف للكسب .

وقد يعترض القارئ بأنه لم يجد التشجيع فى صباه وهو الآن لا يجد الرغبة فى الثقافة . ولكن هذه الأمية يمكن علاجها . فإن أى شاب يمتاز بذكاء متوسط ، أو حتى دون المتوسط بقليل ، يجد فى نفسه اهتمامات ثقافية مختلفة من قراءة الجريدة اليومية إلى التحدث عن قصة سينمائية إلى الاستماع للراديوفون إلى غير ذلك . ولا بد أنه سيجد البؤرة التى يتجمع فيها نشاطه وانتباهه . ثم من هذه البؤرة تتشعب اهتماماته فيجد الرغبة فى الدرس .

وعلى من ينشد الثقافة أن يختار أصدقاءه من المثقفين حتى يجد فيهم المشورة الحسنة والاختيار السديد . ويتجنب أولئك الأميين الذين غرست فيهم المدرسة أو الجامعة الكراهية

للكتب ، أو أولئك الذين حملتهم الاعتبارات المادية فى مجتمعنا على ألا يقيموا وزنا لأى نشاط إلا إذا كان حرفيا يزيدهم درجة أو يأتى لهم بعلاوة فى الوظيفة .

فإذا وجد الشاب البؤرة التى يتجمع فيها نشاطه فعليه أن ينفق بسخاء ويشترى كل ما يتصل بها لكى يتوسع ويتعمق . وقد تكون هذه البؤرة فنًّا أو علماً . وفى العالم منهما نحو ١٣٠ أو أكثر . ومن البعيد ألا يجد شاب فى هذا العدد شيئاً يتعلق به . فإن الأغلب أنه سيجد أكثر من علم أو فن . فهو قد يهوى دراسة الحيوان أو التاريخ أو الكهرباء أو السيكلوجية أو الاقتصاديات أو السياسة أو الاجتماع . أو قد يتعلق بفنون الرسم أو النحت أو بتلك الفنون العصرية التى يغرم بها بعض الشباب وهى التى تتعلق بالراديوفون أو السينماتوغراف أو التلفزيون .

وكل واحد من هذه الفنون أو العلوم سيتفرع إلى فن أو علم آخر لارتباط المعارف . فلست تجد رساما إلا وهو يدرس التاريخ والحركات الاجتماعية التى غيرت الأطرزة والاتجاهات . ولست تجد مؤرخا إلا وهو متنبه إلى السياسة العالمية للتجاوب المستمر بين السياسة والتاريخ . ولست تجد بيولوجيا إلا وهو اجتماعى بل هو يدرس أيضاً الدين والسيكلوجيا والأخلاق لأن نظراته البيولوجية قد ولدت فى ذهنه رؤيا جديدة . وهلم جرا .

فالشاب يبتدئ فى الثقافة وكأنه يتخصص ليس له غير اهتمام واحد . فإذا به ينتهى وهو مشغول باهتمامات ثقافية عديدة . وهو هنا سريع إلى التبريز . لأنه قد اختار عن هوى وحب فالعاطفة هنا تؤيد العقل وتخدمه . ثم هو يستخدم فراغه لهذه الهواية . وفى كل مجتمع متمدن يزيد الفراغ على مدة العمل الحرفى . واستخدامه للثقافة يتيح أحسن الفرص للتربية الذاتية . واستخدامه فى غير أغراض ثقافية قد يفتح أبواباً للفساد لا تحصى . ثم هذا الفراغ يزداد كلما اتسعت الحضارة وشملت بعض الطوائف من العمال مثل أولئك الذين يعملون فى المصانع الكبيرة . والعامل الذكى الذى يشغل هذا الفراغ المتزايد بتربية نفسه يجد أنه فى رقى لا ينقطع وأنه يحصل على مقدار من الثقافة قد يغبطه عليها أولئك الذين وهبهم القدر الاقتصادى تعليما مدرسيا أو جامعيا لم يحصل هو عليهما .

الجريدة والمجلة

الجريدة والمجلة هما أعظم المواد الثقافية خطراً وخطورة فى مجتمعنا . لأنهما بطبيعة الظهور الدورى لأعدادهما تهيئان القارئ لألوان من الدعاية قد تكون حسنة مرجوة الخير أو سيئة حبلى بالشر . والجريدة رخيصة يسهل شراؤها كما هى تجذب القارئ بمختلف الألوان على مائدتها من خبر إرجافى فى السياسة إلى صور مغرية إلى قصص مسلية إلى غير ذلك . وهى فى أيدى التجار تجارة . وقد تكون تجارة النخاسة فى بيع الرذائل . فالمتجر بالصحافة يستكتب العوام لكى يكتبوا للعوام ويخاطب أحط الرذائل فى القراء . ثم يجعل جريدته إعلانات فى ظهورها بعض الأخبار والصور التى تخضع للغاية من هذه الإعلانات . فالجريدة التى تعينها إحدى الشركات التى تبيع الخمر أو الدخان مثلا لا يمكنها أن تكتب مقالا فى الضرر الذى يعود منهما على صحة الجمهور .

والجريدة أو المجلة التجارية ، كما هى خاضعة لإعلانات التجار ، كذلك هى خاضعة للإعلانات التى تحصل عليها من الأحزاب . فلكى نقرأ الجريدة أو المجلة بفهم وتمييز يجب أن نقدر هذه العوامل الخفية . وأن نزن الخبر أو المقال أو الصورة فى ضوء هذه العوامل . كما يجب علينا أن نقدر على الدوام أثر الإيحاء من التكرار ، ويجب أن نسأل عن المال الذى يدور به دولاب الجريدة ومن أين مأتاه . فقبل سنوات مثلا أفلست إحدى شركات التأمين فلم ينشر هذا الخبر فى الجرائد فى مصر مع أن كثيراً من قرائها كانوا يملكون أسهم هذه الشركة . وترك هؤلاء المساكين على جهل بهذا الإفلاس حتى تخلص غيرهم من حاملى هذه الأسهم ووقعوا هم فى الإفلاس أو الخسار . وذلك لأن وراء هذه الشركة شركة أخرى كانت تنتفع بالإعلان عنها فى الجرائد المصرية .

وعندنا غوغاء من المجلات الأسبوعية هى شر ما يمكن أن يتناوله قارىء لكى يثقف ذهنه ويربى نفسه . وهى نوعان : أحدهما للقيل والقال عن الشواطئ والسباق ولهو الأغنياء . والآخر يرصد صفحاته للثقافة العربية ويكاد يقتصر عليها . وكلاهما مضر . لأن الأولى تفسد الذهن بإيحاءات تبعث اهتمامات وعادات سخيفة فى القراء . والثانية لا تفتأ تكتب المقالات

فى الدعوة إلى مجتمع شرقى آمن و إلى النفور من المجتمع الغربى الناهض . حتى لقد بلغ بأحد الكتاب أن يقول فى إحدى مقالاته فيها فى سنة ١٩٤٢ « يرحمك الله يا أبى لقد كنت لا تشترى حذاء جديداً إلا بعد أن تجربه على رءوس زوجاتك » .

وهذا المجتمع الشرقى الذى يدعو إليه هذا الكاتب هو الذى يجب أن يكافحه كل رجل بار بالمرأة والأمومة . وليس على هذا الكوكب شرق وغرب و إنما عليه أمم منحطة وأمم راقية .

والجريدة أو المجلة الحسنة هى تنزع إلى الفلسفة وتنبه الضمير وتستفز الذهن إلى التفكير . ولو كانت مخالفة لآرائنا . و إذا تحرى القارئ الانتفاع والارتفاع بالجريدة فإنه لا بد مستغن عن كثير مما يطبع و ينشر . وهو إذا كان عارفاً بلغة أجنبية فإنه يجب أن يشترك فى الجرائد والمجلات الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية لكى يتصل بالعقل العام على هذا الكوكب . ولكنه حتى مع امتيازه هذا محتاج إلى قراءة جريدة يومية عربية على الأقل . فعليه أن يختارها مع العناية و يدرس أغراضها الخفية والظاهرة . وعليه أن يحاسب نفسه من وقت لآخر عن الإيحاءات السيئة التى ربما قد تلبس بها لأنه يقرأ أخباراً لم يتنبه إلى الدعاية المختفية وراءها . وعليه أن يذكر أن هناك « أكاذيب سلبية » هى تلك الأخبار التى منعت الجريدة نشرها .

أما كيف نختار الجريدة فإننا قبل كل شىء يجب أن ننظر إليها كما ننظر إلى مدرسة أو مكتبة مفيدة تخدمنا فى رقينا . فيجب على الأقل أن يكون بها كاتب عصرى مستنير يفهم التيارات الاجتماعية والاقتصادية التى تكتسح العالم . ويجب أن تكون حاوية لطائفة من الأخبار الأصيلة التى تنقل إلينا صورة صحيحة من التغير أو التطور العالمى .

وفى الجريدة — كما فى الكتاب — يجب أن نقرأ بالقلم . فنبرز الخبر الخطير بعلامة واضحة ونستشير الخارطة ونقرأ الصفحة المالية ونتعلم كيف تكون تقلباتها دلالة على تغير السياسة . بل يجب أيضاً أن نقرأ الخبر الذى لم يكتب . ونتعرف إلى الأسباب التى تمنع النشر لهذا الخبر أو ذاك .

وفى مدة الحرب تعود الجريدة ضرورية . لأن الحرب ، كما قال ماركس ، هى قاطرة التاريخ

لسرعة الحوادث فيها . فنحن نقرأ فى الجريدة تاريخا حياً لعصرنا وهى لذلك تجذبنا بقوة الحوادث . بل إن أيام الحروب كثيراً ما كانت سبباً لجذب العامة إلى قراءة الجريدة واعتياد شرائها مدى الحياة .

والجريدة والمجلة كلتاهما يجب أن تكون بعض أثاث البيت المتمدن ويجب أن يتعلق الصبيان بالقراءة فيهما . وربة البيت الذكية التى تنشد الثقافة لابنائها تنفق على المجلات والجرائد كما تنفق على حاجات المنزل الأخرى . ويجب أن تعنى باختيار النفيس منها لأنها تعلم أن إيحاء الخبر أو الصورة أو المقال كبير جداً فى إيحاء الفضيلة أو الرذيلة وتربية الشخصية أو إضعافها ثم يجب أن نراعى هذه الاعتبارات التالية :

١ — يجب أن نتعلم القراءة السريعة للجرائد والمجلات . وأول ما نحتاج إليه فى ذلك ألا نحرك الشفتين أو اللسان ونحن نقرأ . وعندئذ لا تستغرق الجريدة من وقتنا فى المتوسط أكثر من ١٠ دقائق .

٢ — يجب ألا نقرأ الجريدة التى تزكى أراءنا وتمالئ حزبنا فقط . بل يجب أن نقرأ الجريدة الأخرى التى تمثل رأيا آخر . وإذا استطعنا فلتكن لنا جريدتان تختلفان فى الرأى .

٣ — يجب أن نحدث أعضاء البيت عن موضوعات الجريدة لكى نرفعهم من لغو القيل والقال إلى أحاديث السياسة والاجتماع . وقد نصل من ذلك إلى تكافؤ ثقافى بين أعضاء العائلة .

٤ — من الحسن أن نصطنع عادة القص . فنخصص ملفاً أو ملفات نقص فيها الأخبار أو المقالات أو الإحصاءات التى نحتاج إليها فى المستقبل للمراجعة . وقد يكون أحد الملفات للأدب والآخر للسياسة . والاجتماع ... الخ

٥ — وعلى كل حال يجب ألا تغنينا الجريدة والمجلة عن الكتاب . لأن الكتاب هو أساس الثقافة .

على أننا مع هذا يجب ألا ننسى أن فى جرائدنا ومجلاتنا مساوئ أصيلة تؤدى إلى نقص التربية الثقافية لقرائها . أبرزها هى :

١ — أنها غير متصلة بالعقل العام على هذا الكوكب . فقارئها — بخلاف القارئ

للصحف الأوربية — يجهل التيارات العالمية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .

٢ — أننا لا نجد فيها الكاتب المربى الذى كنا نجد مثلا فى شخص لطفى السيد فى « الجريدة » قبل ثلاثين سنة .

٣ — أن الإقبال على المجلات قد عظم . ولكن المجلات مع ذلك قد انحطت بدلا من أن ترتقى . وليس عندنا مجلة تمثل ما سميناه « العقل العام » فتنقل إلينا تطورات الصين الاجتماعية ومشكلات الولايات المتحدة وتجعلنا نحس أن مصر جزء من الكرة الأرضية وأنها لم تنسحب من التاريخ .

٤ — أننا فى حاجة إلى مجلات أسبوعية وشهرية لدرس السياسة العالمية والتطور الاجتماعى والتوجيه العلمى . وتربيتنا ستبقى ناقصة ما لم تنشأ هذه المجلات فى مصر .

٥ — أن معظم المجلات فى مصر يعيش بالتحرش بالغريزة الجنسية . سواء بالصورة أم بالكلمة . وهى كبيرة الضرر لهذا السبب .

هذا ما يقال للقارىء ولكن يجب أن تقال كلمة أخرى للحكومة المصرية وهى أنه لا يجوز فى القرن العشرين أن تفرض غرامة على التفكير حتى ولو أسميت هذه الغرامة باسم التأمين أو الضمان . فإنه لا يجوز الآن لأحدنا أن يخرج جريدة إلا إذا أدى مبلغ ٣٠٠ جنيه ولا يخرج مجلة إلا إذا أدى ١٥٠ جنيها أو قدم ضماناً بأحد هذين المبلغين .

ومن المؤلم أن نقول إن شعباً صغيراً مثل الشعب الفنلندى الذى لا يتجاز عدده ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ تصدر له ٢٠٩ من الجرائد اليومية و ٥٥٠ من المجلات . وكل جريدة أو مجلة من هذه الصحف هى بمثابة الجمعية الثقافية أو السياسية لأنها تجمع حولها طائفة من القراء الذين يقرأون ويدرسون . ولكل طائفة نظر عالمى خاص أو مذهب اجتماعى معين يفيد فى التنوير والتثقيف ، ونحن فى مصر نزيد أربعة أضعاف على سكان فنلندا ومع ذلك ليس لنا سوى سبعة أو ثمانية من الجرائد اليومية ونطبع عشرة من المجلات .

أجل يجب أن يكون إصدار الجرائد والمجلات حراً بلا قيد ولا شرط ولا حاجة هناك لأى ضمان مالى لأنه فى حقيقته غرامة على التفكير الحر وهو يؤخر تطور الأمة .

وآراء الأمة تتعدد وأذهانها تتفاعل بتعدد هذه الجرائد فينشط التفكير .

سيكلوجية الدرس

مادمنا قد وصلنا إلى هذه المرحلة ، حيث سنشرع فى وصف الطرق الناجعة لدراسة المواد ، فإننا نحتاج إلى بعض الإرشادات السيكلوجية التى تجعل الدراسة سهلة محببة .

وكل دراسة تحتاج إلى شيئين هما الحافز والذكاء .

فأما الحافز فنعنى به العاطفة التى تبعث الرغبة أولا ثم الإرادة للدراسة . وهى بمثابة الاشتهاء للطعام . فإننا لا نأكل إلا إذا اشتهينا الطعام . فإذا تولانا حزن أو غضب فإننا نجد أن هذا الاشتهاء قد زال . ولا يجدينا أن تكون لنا معدة سليمة مستعدة للهضم . وكذلك الحال فى الدرس . فلا يغنينا أن نكون أذكياء قادرين على الفهم ما دامت النفس نافرة كارهة . وهناك آلاف من الشبان لا ينقصهم الذكاء ولكن ينقصهم الحافز . وهؤلاء يحتاجون إلى أن تتغير نفوسهم وأن يحسوا هذا التغير الذى لا يقل فى قيمته عن التغير الدينى لأن الشخصية تجد أهدافا جديدة فى الحياة .

وقد حدث فى الحرب الماضية (١٩١٤ — ١٩١٩) أن جنّد بعض الشبان فى الولايات المتحدة ونقلوا إلى ميدان القتال فى فرنسا . وكان أباؤهم من المهاجرين الذين يجهلون كتابة اللغة الإنجليزية . وكان بعضهم فوق الستين ومع ذلك شرع يتعلم الهجاء والكتابة لكى يستطيع أن يراسل ابنه فى فرنسا . وثبت أن هؤلاء الشيوخ تعلموا القراءة والكتابة بسرعة غريبة لأن الحافز كان قويا ، بعث العاطفة والإرادة ، من الحب الأبوى للأبناء .

وثم حادثة أخرى لها مغزاها السيكلوجى — ففى بعض سنوات الكساد والتعطل فى النمسا وجد فى إحدى المدن الصغيرة بإحصاء القراء فى المكتبة العامة أنه على الرغم من توافر الوقت (بسبب التعطل) للعمال ، فإنهم لم يقرأوا من الكتب نصف ولا ربع ما كانوا يقرأون وقت عملهم وتكسبهم . وذلك لأن العامل وقت التعطل كان حزيناً لتعطله . فلم تنشط نفسه إلى الدرس والقراءة ، أما وقت العمل فكان على الرغم من قلة فراغه نشيطاً مسروراً فكان يقرأ .

فهذان المثالان يدلان على قوة الحافز فى الدراسة . فعجز الشيخوخة لا قيمة له مادام الحافز قويا . وفراغ اليوم كله لا يجدى فى الدرس مادامت النفس محزونة بالتعطل .

ولذلك يجب على الراغب فى الثقافة أن يوجد الحافز فى نفسه . وذلك بأن يعين أهدافه فى هذه الدنيا . فيقعد مثلا فى خلوة غرفته و يسأل لماذا يعيش ؟ وهل يصح أن يقضى ٧٠ أو ٨٠ سنة على هذا الكوكب وهو لا يعرف غير أحاديث القيل والقال وألعاب الحظ وقضاء الوقت فى خواطر اليقظة السخيفة ؟

وهو لا بد واصل يوما ما إلى إقناع نفسه بضرورة الرقى بالتثقيف الذاتى وعندئذ يحس الحافز وتنشأ فيه العاطفة . وهى البداية أى رغبة عامة فى الدرس . ثم تنتهى إلى التخصص فى دراسة موضوع معين . وهى هنا الإرادة .

وفى بعض الأحيان نجد الحافز طبيعيا قد أحدثته الطبيعة فى شوهة ميلادية تلازم الشخص مدى حياته وتحفزه على التفوق عن سبيل الثقافة . ذلك أنه يجد الاحتقار من زملائه لأنفه الضخم أو لعوج فى جسمه أو لدمامة وجهه أو نحو ذلك فتكون الثقافة سبيلا إلى الامتياز من حيث لا يستطيع غيره أن يباريه فيه لأنه يبذل عندئذ مجهوداً أكبر منه . وكلنا يعرف المثل المألوف فى تلك الفتاة الجميلة ترى الإعجاب بها من كل ناحية فلا تبذل المجهود الذى تحتاجه الثقافة وتبقى طيلة حياتها بذكاء غشيم غير مدرب . فى حين أن تلك الأخرى التى لم تتمتع بمثل هذا الجمال تجهد وتمهر وتحصّل فيتفتح ذكاؤها وتجد السبيل إلى الثقافة العالية .

فهنا الحافز هو نوع من مركب النقص . نقص يحمل على التكمل . وحاجة تبعث على النشاط للتفوق .

ولكن يجب ألا يحتاج كل منا إلى شوهة يولد بها لكى تبقى مهمازا ينخس نفسه ويحثها على التفوق .

والقصد من الدرس هو التعلم . أى نقل المعارف إلى حياتنا بحيث ننتفع بها فى سلوكنا واتجاهنا وميولنا وتصرفنا الخاص والعام . وواضح أنه لا قيمة لأية دراسة لا تتفاعل مع حياتنا أى ليس لها وظيفة عضوية فى كياننا النفسى .

فإذا أحسسنا الحافز فإننا لا نبالى بعد ذلك مقدار ما نملك من ذكاء . لأن قليلا من الذكاء مع كثير من الرغبة فى الدرس هما خير ألف مرة من ذكاء عبقرى مع انعدام الرغبة .

ويجب فى دراستنا أن نراعى هذه الإرشادات :

١ — أن نتصفح الكتاب جملة فنعرف الفهرست ونقدر ما منح المؤلف كلا من

الموضوعات من الأهمية . وهـذا لا يكلفنا أكثر من بضع دقائق .

٢ — بعد ذلك نقرأ الـكتاب بترتيب المؤلف فلا نختار فصولا قبل أخرى .

٣ — يجب أن نجعل الوجبة الذهنية مثل الوجبة الطعامية ، أى يجب ألا تكون كبيرة نتخم بهـا . فـكما أننا لا نستطيع أن نأكل وجبة تكفينا أسبوعاً كذلك يجب أن نقنع بما يكفى الذهن يوماً حتى لا نكلّ ونصدّ . بل حتى نفهم ونهضم .

٤ — يجب أن نجعل دراستنا مزدوجة . أى لا نقنع بالقراءة بل نزيد عليها الـكتابة . فإذا قرأنا فصلا لخصناه مع التعليق والنقد . وأحسن الطرق لأن نفهم الـكتاب أن نلقى عنه محاضرة لأننا عندئذ نشارك المؤلف فى تأليفه ونستذكر أشيـاء كثيرة ما كنا لنستذكرها لو أننا كنا قد قنعنا بالقراءة .

وعلى القارئ أن يذكر هنا أننا نقرأ الإنجليزية أو الفرنسية ولـكنا نعجز عن كتابتهما . ولا نستطيع الـكتابة إلا بعد مرانة طويلة . فليذكر هذه الحقيقة فى دراسة أى موضوع . فالقراءة أسهل من الـكتابة . ونحن نعرف الموضوع أكثر إذا مارسناه قراءة وكتابة .

٥ — إذا وجد القارئ أن ذهنه يتشتت وقت الدرس فعليه أن يذكر أن هذا التشتت يدل على أنه بدأ يعمل قبل الدرس ولم يتمه . والتشتت برهان على أن نفسه تنزع إلى إتمام هذا العمل .

فربما كان قد شرع فى قراءة قصة ولم يتمها . وربما كان ينوى قراءة المجلة ولـكنه آثر عليها الدرس . وربما نفسه تنازعه إلى الرد على خطاب وصل إليه وأجل هو الإجابة . وربما هو يذكر ميعادا المقابلة لأحد الأصدقاء أو تأدية عمل آخر . الخ . فما دامت هذه الأعمال قائمة فى ذهنه ولم تتم فإنه يجد أنه مشتت عاجز عن حصره فى الدرس . ولذلك يجب عليه أن يتم كل هذه الأشياء قبل الدرس .

٦ — أحسن الأوقات للدرس هو الصباح لأن النوم مع الأحلام ، التى نذكرها أو لا نذكرها ، يكون قد مسح العواطف السيئة التى تكونت فى نهار الأمس . وهذه العواطف تشتت الذهن لأنها تذكرنا بحوادث لم نسرّ منها أو لم ننته منهـا . ودراسة المساء سيئة من هـذه الناحية .

٧ — ولـكن دراسة المساء قد تكون حسنة إذا كانت إيحاءات النهار حسنة .

٨ — يجب أن نعين الوقت والمكان للدرس . بحيث يصير الدرس عادة فإذا دقت الساعة تنبهت النفس و إذا دخلنا الغرفة وجدنا أن جوها ينادينا بالقراءة والدراسة .

٩ — يجب أن نتجنب النفَس الأخير . ونعنى بهذا أننا عندما نشرع فى مجهود ذهنى نجد أن الإرادة تحملنا على بضع ساعات من العمل . وهـذا هو النفس الأول . ومن الحسن أن نقنع به . ولـكن ربما نجد أن العمل يحتاج إلى نفس ثان . فنستأنف العمل مجهودين . ونحس الجهد فى الأول ثم تحملنا الإرادة على العمل وتقطع شوطاً فيه . وهـذا هو النفس الثانى . و إلى هنا ، ويجب وجوبا حتميا ، أن نقف لـكى نرتاح بالنوم أو النزهة .

ولـكن يحدث أحيانا أننا نضطر إلى إنهاء عمل ما فنستأنف العمل مجهودين كارهين . وهـذا هو النفس الثالث . وهو يحملنا على قطع شوط أكبر مما قطعنا فى النفَس الثانى . بل ربما أكبر من النفَس الأول .

ولـكن يجب مع ذلك أن نتجنب هـذا النفس الثالث لأننا فى الحقيقة نؤديه ونحن محمومون . وهو مرض . ويجب ألا يخدعنا ما نحسه من حماسة وقدرة .

وهذا النفس الثالث قد يؤدى بنا إلى انهيار نفسى يحتاج إلى أشهر من العلاج .

كيف نقرأ الكتاب

إذا كانت الجريدة كبيرة الخطورة فى مجتمعنا لقوة الإيحاء الذى تحدثه بالتكرار ، و إذا كانت خطورتها هذه تعظم مدة الحرب لأن العالم يسرع عندئذ فى تغيره وتطوره فإن الكتاب لا يزال وسيبقى قوى الأثر فى التثقيف الذاتى ولن تعادله بل لن تقاربه الجريدة فى ذلك .

والشاب الذى ينشد الثقافة يجب أن يجعل معظم فراغه وقفا على دراسة الكتب . ولا نقول قراءتها . لأن الدراسة هنا يجب أن تكون عادة المثقف . أى يجب عليه أن يقرأ بالقلم . يعلق هنا و يشرح هناك على الهوامش ولا يبالى أن يبلى الكتاب . وهو حين يفعل ذلك إنما يشارك المؤلف فى التأليف و يعود هذا الكتاب « العام » ملكا خاصاً له قد طبعه بشخصيته بما ترك فى هوامشه من شروح وتعليقات . وخير من هذا أن نكتب ملخصات فى كراسة عن كل كتاب حتى نعين درجات انتفاعنا بها . وكما أننا نعنى بطعامنا نختار أفضل ما يباع منه لكى ننتفع به فى صحتنا ، وكما نختار أجود الأقمشة لملابسنا كذلك يجب أن نختار أفضل الكتب لتثقيفنا . وذلك بأن نعمد إلى خير المؤلفين الذين نعرف أننا ننتفع بهم فنقتنى مؤلفاتهم . ويجب أن نؤثر المطولات على المختصرات .

ثم يجب أن نتوخى الترسيم دون التسكع فلا نقرأ جزافا بل ندرس عن تبصر فى الغاية التى نريد تحقيقها فى الدرس . وليس من الشاق على الشاب أن يخلو إلى نفسه و يتعرف إلى حاجاته الثقافية ثلاث أو أربع جلسات يخرج منها ببرنامج لسنة أو سنتين تعين فيها المواد التى يجب أن تدرس فى هذه المدة . والشاب هو خير من يختار لنفسه المواد التى يريد أن يدرس . لأنه فى هذا الاختيار يصدر عن حاجة نفسية ، ولكنه قد يحتاج هنا إلى من يرشده إلى أسماء بعض الكتب التى ينتفع بها .

وفى عالم الثقافة كتب تعد أمهات يجب أن يعرفها كل مثقف . ونعنى كل مثقف فى العالم لكى يصل إلى ما نسميه « العقل العام » وقد وضع بعضهم قوائم « بمائة كتاب » وجدوا أنها ضرورية لكل دارس . وسنبحث هذا الموضوع فى فصول قائمة .

وعلى القارئ أو بالأحرى الدارس أن يعنى بمكتبته فيقتنى أفخر الخزائن والرفوف ويجلد الكتب . وذلك لكى لا ينفر من بذاذتها . ويجب أن يجد فى مكتبته كل إغراء لجذبه إليها سواء من ناحية اعتدال الهواء فيها أو من ناحية اختيار الأثاث .

والشاب المحظوظ هو الذى يهوى الثقافة . أى أنه تعودها عن هواية لازمته منذ الصبا . فهذا لا يكاد يحتاج إلى قراءة هذا الكتاب . لأن بين الكتاب و بينه علاقة فسيولوجية . فهو يختار الكتب عن حاجة نفسية يحسها ونفسه تنمو بالكتب كما ينمو جسمه بالطعام .

ومما يحسن بالشاب أيضاً أن يعمد إلى أحد المؤلفين العالميين الذين أحبهم ووجد لهم الأثر الكبير فى عصرنا فيقرأ ويدرس كل ما كتبه هذا المؤلف منذ أن شرع يكتب ولا يترك شيئاً له يستطيع الحصول عليه ، لأنه حين يفعل ذلك يضم إلى اختباراته الشخصية اختبارات هذا المؤلف ورؤياه فى الدنيا . وهو حين يتعرف إلى تطور المؤلف وكيف تغير فى أربعين أو خمسين سنة إنما يتعرف إلى تطور العصر أيضا .

فلنفرض أن القارئ يحب طه حسين مثلا . فعليه عندئذ أن يترجم هذا الحب الى دراسة كل ما كتبه طه حسين مما يباع ومما لا يباع . وعليه أن يتقصى كتاباته وهو طالب بالأزهر قبل ٣٥ سنة . وعليه أن يقرأ كل ما كتب ضده ويجمع مؤلفاته . وهو بهذا النشاط ينتفع باختبارات طه حسين ورؤياه وكأنه قد عاش حياته وشاركه فى مؤلفاته . وهكذا الشأن فى سائر المؤلفين . فإننا يجب أن نختار واحداً أو أكثر نتعرف إلى حياته واختباراته ونجمع مؤلفاته حتى نستبصر بالتطور الفكرى الذى كان يدركه فترة بعد فترة من حياته .

ولسنا نبالغ فى قيمة الكراسة للتلخيص والتعليق . فإن الطالب الذى يحقق ويدقق يجب أن يقتنى هذه الكراسة . ولكن يجب عليه أيضا أن يقتنى كراسة أخرى يقيس أو يعين فيها مراحل رقيه الذهنى بصرف النظر عن هذا الكتاب أو ذاك . أى أن الكراسة الأولى تختص بتقدير الكتب أما الثانية فبتقدير رقيه الشخصى والذهنى .

ويجب على الطالب ألا يسأم من التساؤل : هل أنا ارتقيت بدراسة هذا الكتاب ؟ هل أنا ارتقيت فى السنوات الثلاث الماضية ؟ وما هى أوجه الرقى التى أستطيع أن أقول إنى حققتها فى هذه السنوات ؟

و إذا كان هذا التساؤل قد يؤدى إلى شىء من النفور من الكتب فلا بأس فى ذلك . لأن هذا النفور هو فى صميمه زهد روحى وحديث نفسى سوف يؤديان إلى زيادة التحقيق والتدقيق فى التثقيف الذاتى . بل ربما تكون هذه الفترات فرصة لتغيير القيم الثقافية والانسلاخ فى الشخصية كما تنسلخ العذراء وهى فى فيلجتها إلى الفراشة . فيخرج الطالب بعد هذا النفور إلى اهتمامات جديدة لم تكن له من قبل وقد يصل منها إلى آفاق أرحب وأفلاك أبعد .

دراسة اللغة العربية

اللغة العربية هى لغة الثقافة للأقطار العربية . نقرأ بها الكتاب والجريدة ، وعلى ألفاظها بنى المجتمع الذى نعيش فيه فيجب أن ندرسها ونتعرف إلى ما جل ودق من معانيها . وهناك من السيكلوجيين من يزعم أننا لا نستطيع أن نفكر بلا لغة . أى أن معانينا إنما هى ألفاظ قبل كل شىء . وتفكيرنا إنما هو كلام صامت .

وهناك ما يرجح صحة هذا الزعم إلى حد بعيد . والكاتب الذى مارس الكتابة هو أول من يحس صحة هذا الزعم . فإن المعانى كثيراً ما تأتى عقب الألفاظ . وقلة الكلمات فى لغة المتوحشين هى من أكبر الأسباب لتوحشهم . لأنهم لايجدون المعانى الراقية لعدم الكلمات التى تعين هذه المعانى . واللغة التى تحتوى الكلمات الدقيقة التى تعين المعانى المفهومة المحدودة تساعد الأمة على الرقى . بخلاف اللغة التى تحتوى الكلمات المترادفة أو التى تحمل معانى مختلفة وأحياناً متناقضة فإنها تؤخر الأمة لأنها تفسد المنطق وتعطل التفكير . وهى ، أى الكلمات ، تكون عندئذ بمثابة النقد الزائف الذى لا يشترى بما كتب عليه من قيمة ، أو أن قيمته تزيد وتنقص بلا حساب .

ولغتنا العربية مع العناية فى الاستعمال وتخير الحسن من الألفاظ وترك السىء تعد من أفضل اللغات . ونستطيع مع هذه العناية أن نصل منها إلى الأسلوب الاقتصادى أو حتى إلى الأسلوب البرقى فى التعبير . ولكنا ورثنا عادات كتابية جعلت اللغة العربية عند أمم العرب الآن كما كانت اللاتينية عند الأوربيين فى القرون الوسطى . أى مجموعة من الزخارف اللفظية السخيفة وافتخار بالمترادف وإمعان فى الألاعيب البلاغية الصبيانية حتى انقطع التفاعل بينها وبين المجتمع . فالمجتمع يتطور بعيداً عن اللغة العربية التى أصبحت خرساء لا تنطق بنحو مائة علم وفن يستمتع وينتفع بها جميع الأمم المتمدنة دوننا .

ولهذا الانفصال القائم بين اللغة والمجتمع نجد أن الأدب متأخر لا يعبر عن النفس المصرية . بل إننا لا نكاد نعرف ما هو فن الدرامة لهذا السبب أيضاً . وهناك من يزعم أننا سوف نكتب كما نتكلم الآن باللغة العامية ، بل يجب أن نسعى ونجد لكى نصل إلى هذه

الغاية . والخبط كثير فى هذه المشكلة التى يرجو مؤلف هذا الكتاب أن يدلى فيها برأى فى القريب . لأن مشكلة اللغة العربية هى مشكلة التفكير والثقافة للمصريين . واللغات فى مباراة سوف تسقط فيها اللغة التى تعجز عن التثقيف والخدمة . وهناك حركات ذهنية جديدة . مثل الحركة السيمائية أى البلاغة الجديدة تطارد الزخارف وتبتكر الألفاظ الخادمة . وهناك « الإنجليزية الأساسية » التى تعتمد على ٩٤٦ كلمة أساسية فقط لدراسة اللغة . ويقصد منها تعميم الإنجليزية فى العالم كله بتسهيلها إلى أقصى حد حتى لا يحتاج الأجنبى عنها لتعلمها إلا لبضعة أسابيع أو أشهر . وأول ما نحتاج إليه فى مصر لإصلاح لغتنا أن نجعل زيادة كلمة فى التعبير خطأ لا يختلف من الخطأ فى نصب الفاعل أو رفع المفعول .

وطالب الثقافة فى مصر أو أى قطر عربى يحتاج إلى أن يعرف اللغة العربية معرفة دقيقة ووافية حتى لا يجد نفسه غريبا عندما يقرأ الأغانى أو مؤلفات المعرى أو ابن خلدون . وخير الطرق لتعلم اللغة أن ندرس الموضوعات التى نهتم بها فتنتقل إلينا كلمات اللغة فى الجو الذى استعملت فيه . فالطبيب العصرى يمكنه أن يقرأ فى لذة وفهم كتاب ابن أبى أصيبعة «طبقات الأطباء » . وهو عندئذ لا يبالى بعض الكلمات التى تصادفه مهما تكن غريبة عليه . لأنه سيفهمها فى جو المعانى المحيطة بها . ودارس الفلسفة يستطيع أن يتابع ابن رشد أو ابن سينا فى التعبيرات الغريبة التى يعجز المتخصص فى اللغة عن فهمها . وبكلمة أخرى يجب ألا ندرس اللغة مباشرة أى يجب ألا نتعمد دراسة اللغة كأنها مادة منفصلة . لأن الواقع أن اللغة هى أسلوب للتعبير . والتعبير يعنى فى النهاية معالجة موضوعات .

ولسنا نقصد من هذا إلى أننا لا نحتاج إلى معجم نستشيره كلما صادفتنا صعوبة لغوية . بل العكس . فإن طالب الثقافة لا يمكنه أن يستغنى عن الرجوع إلى المعجم واستشارته من وقت لآخر . وعليه أن يدرك أن دقة الفهم والتمييز تعنى دقة التعبير . والكاتب الذى يرضى بالجملة المفككة ويهمل العبارة المحبوكة على قد المعانى المطلوبة إنما يؤذى القارئ لأنه يحمل إليه تفكيراً مفككاً غير محبوك .

ويجب ألا نترك دراسة اللغة للمتخصصين . لأننا إذا فعلنا هذا أهملنا الوسيلة الكبرى للتفكير . لأننا نفكر باللغة . ومن الحسن لكل مثقف أن يمارس الكتابة إما بمراسلة

الصحف و إما بتأليف رسالة أو كتيب فى موضوع يهتم به . لأن الكتابة تحمله على التدقيق فى اختيار الكلمات والدقة فى استعمالها . والفائدة تعود عليه فى النهاية لأنه يتعود هذه الدقة فى دراسته وتربيته الذاتية .

ويجب أن نميز بين الفهم السلبى والفهم الإيجابى للغة . فإننا حين نتعلم اللغة الإنجليزية مثلا إنما نعنى أننا نتعلم قراءتها . فنحن نقرأ كتابا إنجليزيا فيكون فهمنا سلبيا . ولكن إذا كنا نقرأ هذا الكتاب ثم نعالج تلخيصه باللغة الإنجليزية فإن فهمنا له يعد فهما إيجابياً .

فالقدرة على القراءة تعد فهما سلبيا . ولكن القدرة على الكتابة تعد فهما إيجابيا . وليكن لنا مغزى من هذه الحقيقة فى دراستنا للكتب العربية . فإذا عمدنا إلى تلخيص ما نقرأ أو إذا ألقينا محاضرة عما نقرأ فإن هذا يحملنا على زيادة الدرس للموضوع وأيضا للغة .

وربما يجد القارئ لهذا الفصل تعمقاً وتوسعاً فى كتابى « البلاغة العصرية » .

الأدب العربى القديم

هذا المجتمع المصرى بل كل مجتمع عربى آخر — إنما نشأ فى حضن الثقافة العربية ورضع من تقاليد الإسلام . ولا يمكن مصرياً أو عربياً أن يهمل الثقافة العربية القديمة لهذا السبب . والشاب المثقف — سواء أكان مسلماً أم غير مسلم — يحتاج إلى دراسة القرآن لكى يفهم الأصول التى بنى عليها مجتمعنا . كما يحتاج إلى دراسة الأدب العربى بل الثقافة العربية عامة ، كيف نشأت ونضجت ثم انحطت وتدهورت . وعليه أن يتعرف إلى العلل التى منعت العرب من أن يبعثوا النهضة الحديثة بدلا من الأوربيين على الرغم من أن العصور الوسطى عندهم لم تبلغ فى الظلام تلك الحلكة التى بلغتها فى أوربا . وعليه أيضاً أن يعرف حدود النهضة العربية القديمة .

وخلف كل نهضة فى الأدب أو العلم أو الدين حالات اقتصادية هى التى تحرك وتحدث التغير والتطور . وحسبنا أن نقول هنا إن المجتمع العربى كان أرستقراطيا فى كل عصوره حربياً فى بعض عصوره . وأن الثقافه العربية تأثرت بهذا الوضع الاقتصادى . وإذا شئنا التلخيص استطعنا أن نقول :

١ — إن الأدب العربى كان يخدم الطبقة العالية من الأمة من خليفة أو أمير أو ثرى . وإنه لم يكن قط ديمقراطياً إلا فى حالات قليلة جداً فى مصر حين أثرت أيام المماليك بنقل التجارة بين أوربا وآسيا . فألف الكتاب للشعب كتبا مثل ألف ليلة وأبى زيد وقصة بيبرس

٢ — إنه كان فردى النظر لم يجعل العالم موضوعه ولا المشكلات البشرية أساس اهتمامه .

٣ — تأثر الأدب العربى تأثراً سيئاً جداً بانفصال الجنسين .

٤ — النظرة العالمية فى الأدب العربى هى — كما كانت فى أوربا مدة القرون الوسطى — نظرة إلهية وليست بشرية .

٥ — كاد العرب ينهضون فى الفلسفة . ولكن الغزالى وأمثاله قتلوا هذه النهضة لأنهم وصموا الفلسفة بالكفر .

أما لماذا لم يحدث العرب النهضة التى أحدثها الأوربيون فى منتصف القرن الخامس عشر فإنى أنقل إلى القراء الأسباب التى يراها كروثر . فهو يقول إن الذى حال دون العرب والنهضة هو :

١ — الرق . لأن العمل اليدوى وصم به . ولم يعد المجتمع العربى يحتاج إلى اختراع آلات تخفف منه أو تغنى عنه .

٢ — تحريم الربا . لأن إنشاء المصارف أصبح شاقا أو مستحيلا وكانت المصارف ضرورية للتجارة وراء البحار أو حتى بين مدينة وأخرى .

٣ — منع التشريح . لأن الطب والبيولوجية لم يعودا من العلوم التجريبية .

٤ — منع التصوير . ولهذا المنع علاقة بالطب والبيولوجية والبناء والنحت الخ .

٥ — قلة الخشب وعدم الفحم . لأن بناء السفن والمصانع واعتمال المعادن يحتاج إليهما .

هذه هى فى رأى كروثر الأسباب التى منعت العرب من القيام بالنهضة . وهى أسباب فى ذاتها وجيهة . ولكن الموضوع لا يزال بكراً يحتاج إلى زيادة فى البحث والدرس . ويجب على كل حال أن نذكر أن ظلام القرون الوسطى عند الأمم العربية كان أقل حلكة مما كان فى أوربا . وأن الثقافة العربية فيما بين سنة ٧٠٠ و ١٤٠٠ سنة كانت أرقى بكثير من الثقافة الأوربية فى هذه الحقبة . وربما تكون الأسباب التالية جديرة بالنظر والاعتبار .

١ — لم يكن عند العرب كهنة يستأثرون بالثقافة ويحدّون من حرية الفكر وإن كان كثير من الخلفاء العباسيين قد اصطنعوا حقوق الكهنة . وهذا بخلاف الحال فى أوربا حيث استأثر الكهنة بالتفكير وقطعوا الصلة بينه وبين الشعب .

٢ — بساطة الإسلام وخلوه من الارتباكات الغيبية جعلت المسلمين أكثر حرية فى التفكير من الأوربيين .

٣ — لسعة العالم الإسلامى من حدود الصين إلى المحيط الأطلنطى ، ولحرية العرب فى الوصول إلى الشرق الأقصى ، صار من الممكن إنشاء مدن كبرى . والمدينة الكبيرة التى تتسع دائرة تجارتها إلى الأقطار البعيدة هى أساس الثقافة الخصبة . أما أوربا فإن ثقافتها عادت قروية لقطع المواصلات بينها وبين أفريقيا وآسيا (والعرب هم الذين قطعوا هذه المواصلات) .

٤ — كان البحر وسيلة للمواصلات عند العرب . ولم يكن كذلك عند الأوربيين .

* * *

والآن قد يتساءل القارئ : لماذا كل هذا الشرح عن الأدب العربى أو الثقافة العربية القديمة مع أن الغرض الأصلى من هذا الفصل أن نعرف الطرق التى تمكننا من دراستهما ؟

فنجيب على هـذا السؤال بأنه يجب التقدير والتقويم . فإن كثيرين من الراغبين فى الدراسة والثقافة فى مصر يقتصرون على أدب العرب كأنه خير ما أنتجت عقول البشر وكأن هذا الكوكب وما أنتجته عليه عقول الإغريق والصينيين والهنود والألمان والإنجليز وغيرهم لا قيمة له إلى جنب الثقافة العربية القديمة . فإن من أوجب واجباتنا أن ندرس الأدب العربى ولكن بشرط أن نعرف مكانه فى الآداب العالمية . لأنه قبل كل شىء موسوم بالقرون الوسطى . وهو بعيد كل البعد عن النهضة العصرية البشرية .

أما ماذا نقرأ فى الأدب العربى القديم فهذا ينقسم قسمين :

أحدهما أمهات الكتب التى يجب أن نقتنى ونحتفظ به للمراجعة والاستشارة . وأما القسم الآخر فتلك الكتب التى نستطيع أن نستغنى عن بعضها أو نتوسع فى بعض دون بعض منها .

وعندى أن كل شاب ينشد الثقافة و يريد أن يكفل لنفسه معرفة عامة بالثقافة العربية القديمة يحتاج إلى أن يقتنى هذه الكتب الستة التالية وهى تبلغ نحو ٧٠ أو ٨٠ مجلداً :

١ — القرآن : باعتباره الأساس الذى بنى عليه المجتمع العربى . وليس هذا واجب المسلم فقط بل واجب المسيحى أو اليهودى أيضاً .

٢ — تاريخ الطبرى . ومنه نعرف الحقائق والأساطير التى تكونت بها العقلية العربية . وهذا إلى سرد محقق لتاريخ العرب فى القرون الثلاثة الأولى .

٣ — معجم الأدباء لياقوت . فإنه موسوعة أدبية فى غاية السمو . وتراجم الأدباء مع التعليق على أشخاصهم ومؤلفاتهم بقلم أديب مثل ياقوت تنير القارئ عن البيئات التى زكا فيها الأدب العربى القديم .

٤ — الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى . فإنه موسوعة أدبية عظيمة أيضاً . وهو يشرح لنا المجتمع العربى فى الطبقات العالية .

٥ — لسان العرب لابن منظور . وهو معجم يشبه الموسوعة كتب على الطريقة القديمة فى المعاجم .

٦ — نفح الطيب للمقرى . عن تاريخ الأندلس . وهو يشرح لنا ألوانا من الرقى والانحطاط فى هذا الحلم العربى الذى أوشك أن يكون حقيقة لو أنها كانت قد نمت فى أوربا لتغير تاريخنا .

هذه الكتب الستة يجب أن تقتنى وتحفظ . وتعد أساساً للثقافة العربية القديمة .

الكتب العربية القديمة

فى الفصل السابق ذكرنا ستة من الكتب التى تعد مراجع تدرس وتقتنى للرجوع إليها من وقت لآخر . وهى جميعاً ضرورية . أما فى هذا الفصل فسنذكر بعض الكتب العربية القديمة فى الأدب والسياحات والتاريخ والعلوم . ويمكن القارئ أن يأخذ منها بالقدر الذى يريد ، وأن يتوسع هنا ويتزيد ، أو يقنع هناك ويقتصر . فلعله يؤثر الأدب على التاريخ أو العكس . ولعله يميل إلى الدراسات الفلسفية ويحب أن يقتنى مؤلفاتها بدلا من كتب التراجم أو السياحات . والشاب الذى يدرس الثقافة العربية ويهوى فناً منها يستطيع بعد قليل من الدراسة أن يسترشد مستقلا بفنه كما يستطيع أن يتجاوزه إلى فنون أخرى تتصل به .

والثقافة العربية القديمة هى قبل كل شىء ثقافة الأدب . فهى غنية فى هذه الثروة . ولكى نعرف الأدب العربى على أحسنه وأنضجه وأفخله يجب أن نقرأ الجاحظ . بل يجب ألا نترك للجاحظ كلمة كتبها دون أن نعرفها ونتأملها . فإنه أعظم أدباء العرب قاطبة . وهو رجل موسوعى الذهن يكاد يكون بشرى النزعة . وهو يتحمل المقارنة مع أى أديب أوربى ويخرج أحياناً من هذه المقارنة مزكى بل ظافراً . وربما يحسن بالقارئ أن يتقدم إليه بعد أن يقرأ الفصل البديع الذى كتبه فى ترجمته ياقوت . وجمهور المثقفين يذكرون البيان والتبيين كأنه خير مؤلفاته . ولكن الواقع أن جميع مؤلفات الجاحظ من الطراز الأول وليس فيها شىء من الطراز الثانى أو الثالث . والانتقال من الجاحظ إلى أى أديب عربى آخر هو انحدار كبير . لأنه ليس بين أدباء العرب أيام الأمويين أو العباسيين من يقاربه . فضلا عن أن يساويه . لأن الجاحظ كان فى كل ما كتب يدل على اهتمامات ذهنية حيوية وكان يعالجها بنضج إن لم نقل بفحولة . وهو عبقرى فى مجادلاته الدينية كما هو فى فكاهاته بل كما هو فى جولاته حتى فى دراسة الحيوان . ولذلك فإننا نستطيع أن نقول إن الشاب الذى يجهل الجاحظ إنما يجهل شيئاً كثيراً من أجود ما كتب قديماً فى اللغة العربية . ويأتى بعد الجاحظ ، الشعراء ، من أمثال المتنبى وابن الرومى وأبى تمام وأبى العتاهية والأخطل والمعرى . ومن الحسن أن ندرس ترجمة طه حسين للمعرى ورسالة الغفران بتعليق كامل كيلانى .

ونصيحتنا للطالب هنا أن يدرس أديباً واحداً كل الدرس فلا يترك له شيئاً . وأن يلتفت إلى غيره بعد ذلك التفات المتنزه المختار . ولذلك فإن شرح ابن أبى الحديد على « نهج البلاغة » مثلا يعد من الكتب الفريدة التى نحتاج إليها فى دراسة الجاحظ وغيره من الأدباء كما نحتاج إلى كتب أخرى قد تفرقت فيها أخباره وكتاباته . ونستطيع أن نسترشد بمؤلفات أحمد أمين فى دراسة التطور الفكرى فى القرون الثلاثة الهجرية الأولى وبكتاب عصر المأمون لفريد الرفاعى . وعندى أن الشخصيتين البارزتين فى الأدب العربى القديم هما الجاحظ والمعرى . أما من عداهما من الشعراء والكتاب فيمكن دراسته على مهل بل فى الضوء الساطع لهاتين الشخصيتين .

وهناك من يكبر من شأن المتنبى . وعندى أن قيمته تنحصر فى مغزى الصراع الذى قام بين الروم والعرب . وكانت الدولة الحمدانية بؤرة هذا الصراع . أما الهمذانى والحريرى وأمثالها فمؤلفاتهم يتداولها القراء وهى كبيرة القيمة التاريخية أما القيمة الفنية فشأنها صغير جداً

وعلى القارئ أن يسترشد فى الشعر بحماسة أبى تمام ومختارات البارودى وكلتاهما تفتح له الباب للتوسع .

ويجب أن ندرس كتب السياحات العربية مثل ابن بطوطة وابن جبير . فإن ابن بطوطة رحل من شاطئ المحيط الأطلنطى (عند طنجة) إلى شاطئ المحيط الهادى (فى الصين) وهو يكشف لنا عن دنيا عظيمة فى القرون الوسطى كنا نجهلها أو نجهل الشىء الكثير منها لولاه . وأقل منه ابن جبير فإنه يصف لنا أحوال البحر المتوسط وأقطاره . وإلى هؤلاء يجب أن نضيف الجغرافيين أمثال الإدريسى . وكتاب ياقوت فى البلدان . وهو معجم يحفظ للمراجعة .

أما العلوم العربية القديمة فثروتنا فيها صغيرة . فإن حياة الحيوان للدميرى ، ثم طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وكتاب الأنطاكى فى العقاقير ، وكتاب البيرونى عن الرياضيات ، ومؤلفات ابن سينا ، كل هذه العلوم التى تعالج الطب والمواد والرياضيات والحيوان قد اختلطت فيها الأساطير بالحقائق . وقيمتها كلها تاريخية ويجب أن نسترشد هنا بكتاب « تراث العرب العلمى » لمؤلفه قدرى حافظ طوفان .

واللغة العربية حافلة بالمؤلفات التاريخية . وقد ذكرنا الطبرى فى الفصل السابق وعددناه مرجعا للاستشارة . ونزيد هنا مؤلفات ابن الأثير والمسعودى وابن خلدون وابن خلكان (وهذا الأخير يترجم بحياة البارزين إلى عصر صلاح الدين) .

أما فى الفلسفة فإن مؤلفات ابن سينا والفارابى والرازى وابن رشد وجماعة إخوان الصفا يمكن أن تقرأ للفائدة التاريخية لا أكثر لأن اهتماماتهم الفلسفية لم تعد لها أية قيمة فى عصرنا . وعلى القارئ هنا أن يسترشد بكتاب ج . دى بور « الفلسفة فى الإسلام » ترجمة م . ع . أبو ريدة .

مصر والأدب العربى القديم

نحتاج فى دراسة الأدب العربى القديم أن نخص مصر بقسم كبير من مجهودنا . فإن مصر كانت ولا تزال بعض العالم العربى . وقد قضت قروناً وهى تابعة للخلافة كما قضت قروناً أخرى وهى منفصلة منها . وكانت ألمع أيامها الأدبية أيام الانفصال . لأن تعاقب الولاة عليها من الخلافة فى دمشق أو بغداد (أو القسطنطينية) كان يخرّبها وينزف منها أموالها ورجالها . وحسب القارئ أن يعرف أنه تولى على مصر فى خلافة هرون الرشيد وحده ٢٢ واليا كان همُّ كل منهم بالطبع أن يحصل على أكثر ما يستطيع من مال لكى يعود إلى بغداد ويعيش فى بذخ . وليس من المنتظر من وال أجنبى أن يؤسس المؤسسات أو يصلح أو يرمّ المرافق إذا كان يعرف أنه لن يبقى أكثر من عام . فمصر مع الولاة هى مصر الحلوب التى كانت تستدر حتى تنزف . ولذلك فقدت الأمة شخصيتها أيام ولاة العرب . ثم انحطت إلى ما دون مستوى التاريخ البشرى أيام الولاة الأتراك . فنحن بلا تاريخ أيام هؤلاء الولاة .

أما أيام الاستقلال فى عصر الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والمماليك فإن مصر كانت تنتعش . لأن الوالى كان يستقر فيها فتعود وهى وطنه الوحيد الذى يعمل ويجهد لرفاهيته وتزيينه .

ولكن هذا الانتعاش كان على السطح فقط . لأن جسم الأمة كان يرزح بالمظالم حتى هوت مساحة الأرض المزروعة من ستة ملايين فدان إلى ربع مليون فدان .

ونحن ننقل الجدول التالى عن الزراعة المصرية منذ دخول العرب إلى أيام الفاطميين من كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى » للأستاذ حسن ابراهيم حسن . فهو يقول فى صفحه ١٦٩ .

« بلغت مساحة الأرض المزروعة فى عهد الخليفة الفاطمى المعز ٢٨٥٧١٤ فدانا . وفى عهد وزارة بدر الجمالى نحو هذا القدر . وانعدمت أو كادت فى أواسط حكم الخليفة المستنصر ولم يكن سبب هذا انخفاض النيل أو الوباء . وإنما كان ذلك راجعاً إلى سوء الحكم . . . ويمكننا الوقوف على اطراد النقص فى مساحة الأرض المزروعة فى مصر ... فى الثبت التالى :

الوالى	السنة	المساحة المزروعة	
عمرو بن العاص	٢٠	٦ ملايين	فدان
هشام	١٢٥	٢ مليونا	»
المأمون	٢١٨	٢١٢٨٠٠٠	»
ابن طولون	٢٧٠	؟	»
الإخشيد	٣٣٤	٥٠٠٠٠٠	»
المعز	٣٥٨	٢٨٥٧١٤	»

انتهى كلام الأستاذ حسن ابراهيم حسن . وإنى أوصى القارئ بدراسة كتاب محمد كامل حسين « فى الأدب المصرى الإسلامى » فإنه يشرح لنا هذا الأدب إلى بداية الدولة الفاطمية . ونحن نحتاج إلى نحو عشرة كتب أخرى من هذا النوع توضح لنا تاريخنا الأدبى منذ دخول العرب إلى بداية القرن الماضى . وهذا بالطبع مجهود كبير قد لا يتم إلا بعد سنوات كثيرة .

وبالطبع لم تلمع مصر فى الأدب العربى كما لمع العراق مقر الخلافة التى كانت ترد إليها من أنحاء السلطنة الإسلامية أموال وخيرات وكانت تجذب إليها المتطلعين والنابغين من جميع الأمم العربية . فلم ينبغ فى مصر شاعر مثل البحترى أو ابن الرومى أو أبى نواس . ولا نجد الموسوعات الأدبية العظيمة مثل الأغانى إلا إذا اعتبرنا « لسان العرب » إحدى هذه الموسوعات .

ودراسة الأدب العربى فى مصر لا تزال مشوشة . والكتب المطبوعة عن هذا الأدب قليلة ثم هى ليست أفضل ما يقرأ . ومن المؤلفين المشهورين الذين يجد القارئ مؤلفاتهم مطبوعة المؤرخ المعروف المقريزى . وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى من خير ما يقتنى لأنه يصل بتاريخ مصر إلى سنة ٨٥٠ هجرية .

وهناك كتابان يقرآن لما فيهما من ضوء ساطع على تاريخ مصر فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام . هما « المكافأة » لابن الداية و « الولاة والقضاة » للكندى . والأول قصص طريفة والثانى تاريخ . ويحسن القارئ إذا قرأ كتاب البغدادى عن رحلته فى مصر .

وكذلك حياة ابن خلدون بقلمه فإنه أرصد صفحات كثيرة لوصف الأحوال فى بلادنا عند قدومه ومقامه فيها .

وشعراء مصر الإسلامية ليسوا — كما قلنا — من الطراز الأول . والقارئ يجد لابن نباته والبوصيرى والبهاء زهير دواوين شعر .

والراغب فى درس مصر الإسلامية يجب ألا يهمل الكتب العامية مثل قصة الظاهر بيبرس . فإنها مع ما تجمع فيها من أساطير تدل على الحال الاجتماعية بين الشعب أكثر مما تدل عليه كتب الأدباء ودواوين الشعراء التقليديين .

وعلى القارئ أن يسترشد فى دراسة تاريخ مصر الإسلامية بالكتب التالية .

١ — البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق .

٢ — المماليك فى مصر تأليف وليم موير وترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

٣ — الظاهر بيبرس تأليف محمد جمال الدين سرور .

٤ — النظم الإسلامية تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن .

٥ — كنوز الفاطميين تأليف زكى محمد حسن .

٦ — تاريخ الإسلام السياسى تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن . وتتضح من أسماء الكتب الموضوعات التى نعالجها . ويمكن أن نضيف الكتب التالية لدراسة أواخر القرن الماضى :

١ — تاريخ الجبرتى .

٢ — فتح مصر الحديث لحافظ عوض بك .

٣ — السيد عمر مكرم لفريد أبو حديد .

٤ — محمد على لكريم ثابت .

٥ — علم الاقتصاد للمصريين لمحمد فهمى لهيطة (وهو عرض تاريخى) .

٦ — من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل تأليف يونج وترجمة على أحمد شكرى .

٧ — المجمل فى التاريخ المصرى لحسن ابراهيم حسن .

ويضاف إلى هذه الكتب جميع مؤلفات عبد الرحمن الرافعى بك دون إهمال أى مجلد منها . ومهما أطريت فى هذه المؤلفات فإنى لن أفيها حقها . وخلاصة ما أقوله عنها أن القارئ المصرى الذى يجهلها يجهل تاريخ مصر فى العصر الحديث .

الثقافة العربية الحديثة

لا يكاد القارئ يحتاج إلى هذا الفصل . فإنه يجد الكتب العربية الحديثة معروضة فى المكتبات . وأحيانا تعلن عنها إعلانات زاعقة فى الجرائد والمجلات . ولكنه لنفس هذه الأسباب يحتاج إلى بعض الإرشادات .

فإن الجمهور القارئ فى مصر ينقسم قسمين أحدهما مؤلف من أولئك الذين تعلموا وأتقنوا (والإتقان هنا يستحق التأكيد) لغة أوربية . وهؤلاء قلما يقرأون كتابا عربيا حديثا لأنهم يرتعون فى مرعى خصيب من الآداب الأوربية الراقية يصلون عن سبيلها إلى جميع ألوان الثقافة التى يرغبون فيها . وقل أن نجد واحداً من هؤلاء يحمل كتابا عربيا أو يتحدث عن أديب عربى عصرى . لأن وطنه الأدبى هو الوطن الفرنسى أو الإنجليزى أو الألمانى .

وهذه حال نأسف عليها نحن المؤلفين فى مصر . ولكنا لا نستطيع أن نستصغر شأن هذا الجمهور . ويجب أن نعترف أنه هو الجمهور الراقى الذى يشرب من رحيق لا يستطيع سائر القراء العرب أن يعرفوا كيمياءه . بل حتى حين تكون لهم القدرة على تذوق هذا الرحيق لا يجدون فى المناخ الأدبى العربى الذى يعيشون فيه ما يعين أدبهم على الاختمار .

والقسم الثانى مؤلف من أولئك الذين لم يتعلموا اللغة الأجنبية أو تعلموها ولم يتقنوها . فلذلك لا يقرأون المؤلفات الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية . وهؤلاء هم جمهور القراء فى مصر والأقطار العربية . ومستوى هذا الجمهور مع الأسف ليس عاليا وقدرته الشرائية ليست كبيرة . ولذلك فإن المؤلفين الذين أرصدوا أقلامهم لتنويره لا يجدون التشجيع الكافى منه . وقد عاش العالم العربى فى طاعة قيصريات مختلفة فى الخمسين أو الستين من السنين الأخيرة منعت تعليمه أو أقامت العقبات للحدّ من هذا التعليم فصار الجمهور القارئ الذى يشتهى الثقافة العالية صغيراً لا تستطيع الكتب العلمية أو الاجتماعية أو الأدبية الراقية أن تجد عنده الرواج الكافى للإنتاج الخصب الوفير .

وإذا تركنا القيصريات جانبا وجدنا عقبة أخرى هى هذا النزاع المضمر أو الصريح

بين الثقافة العصرية والثقافة العربية . فليس شك فى أن قيام الجامعة المصرية فى ناحية والجامعة الأزهرية فى ناحية أخرى فى القاهرة هو رمز إلى هذا الصراع . ففى كل من هاتين الجامعتين نحو ١١ ألف طالب يتفرقون فى أنحاء البلاد بعد تخرجهم ويقسمون الرأى العام فى مصر قسمين سواء فى السياسة أم الاجتماع أم الاقتصاد أم الغيبيات . وليس بين الفريقين تجانس فى الثقافة . فالأمة المصرية مع هذا الاختلاف تشبه الشخصية المنشقة التى نعرفها باسم الشخصية الشيزوفرينية . وهذا الانشقاق نراه واضحا فى بعض كتابنا فهم إما متأثرون بـ « مركّب العرب » وإما بـ « مركّب أوربا » وأحيانا نجد التعصب لأحد المركّبين قويا كأننا فى حرب أهلية . ولهذا كله آثار سيئة بل غاية فى السوء فى الرأى العام .

وبدهى أننا نعيش للعالم وليس للعرب . وأننا يجب أن نتصل بالعقل العام على هذه الكرة الأرضية . ورابطتنا بالبشر كلية . ورابطتنا بالعرب جزئية . فإذا كان يجب علينا أن نعرف تاريخ العرب وثقافتهم فأولى من هذا مئة مرة أن نعرف تاريخ العالم وثقافته . ولن نكون أمة متمدنة عصرية مالم نتوسع فى ثقافتنا ونقيس مجتمعنا وخططنا الاقتصادية بالمقاييس العالمية

وبعد هذه المقدمة الصغيرة نقول إن القارئ الذى يرغب فى ترقية ذهنه بالكتب العصرية يجب أن يمتحن نفسه ويقيس مقدار الانتفاع والارتفاع مما يقرأ . فيجب أن يسأل نفسه :

ما هو التوجيه الذى يوجهنى إليه هذا الكاتب ثقافياً وروحياً واجتماعياً ؟

هل هذا الكاتب الذى قرأت له جملة مؤلفات قد خدمنى فى تطورى ؟

هل هذا الكاتب يرشد الجمهور ويقوده أم ينقاد به ويتملقه حتى تروج مؤلفاته بينه ؟ هل هو يسلّى الجمهور أم ينفعه ؟ هل هو ناضج الذهن راشد النفس قادر على النظر الواسع للأمداء العالمية أم هو صبيانى النزعات تافه الأفكار ؟

كل هذه الأسئلة وأكثر منها يجب أن يسألها القارئ لنفسه من وقت لآخر . وهذا التساؤل ينقله إلى وجدان جديد يحس فيه تبعات خطيرة فى تربيته الذاتية .

ويحسن القارئ إذا هو تتبع أحد المؤلفين الذين يحبهم فلم يترك له صغيرة أو كبيرة حتى يقرأها ويدرسها . وهو حين يفعل هذا ينتفع بحياة هذا المؤلف . فكأنه هو ، أى القارئ ، قد

عاشها . لأنه يتتبع تطورها من عقيدة إلى رأى أو من انفعال إلى وجدان أو من ضمير مصرى عربى إلى ضمير عالمى بشرى . والقارئ لا بد واجد واحداً من المؤلفين يجذبه أكثر من غيره .

فليجعل هذا الواحد بؤرة ثقافته وليتعرف إلى كل كتبه بل ليتعرف إلى حياته . فإن أحسن ما تؤلف هو حياتنا التى نعيش . وخير الأساليب التى يجب أن نتبعها مع أى مؤلف ليس أسلوب الكتابة ، بل أسلوب العيش . ولا يمكن أن نفصل بين الاثنين . وإذا لم يكن الأدب قد أثمر حياة طيبة للأديب المؤلف فلن يثمر شيئاً طيباً للقارئ .

مشكلة الثقافة فى مصر

مسسنا هذا الموضوع فى الفصل السابق من بعض النواحى ونحتاج هنا إلى أن نمسه من نواح أخرى لكى نعرف مرسانا فى الأدب العالمى أو بالأحرى نتعرف إلى الأسباب التى عملت لتأخير أدبنا وتخلفه عن سائر الآداب العالمية . فليس شك فى أننا فى تاريخنا القريب أى منذ ستين سنة توالت علينا محن سياسية واقتصادية واجتماعية لا يجهل أحد منا الأصل الوحيد الذى ترجع إليه . وقد أصيبت النهضة الأدبية فى مصر بقسطها من هذه المحن . فكوفح التعليم — وخاصة تعليم النساء — كما منعت الأمة من تأسيس جامعة مدى خمسين سنة تقريباً . وفرضت غرامات على التفكير . فمن شاء مثلا أن يخرج مجلة أو جريدة ، فإن عليه أن يؤدى « تأميناً » هو فى حقيقته غرامة لا أقل ولا أكثر .

وبهذه الوسائل حيل بيننا و بين النزعات العالمية الجديدة . ولذلك فإن كثيراً من تفكيرنا العصرى هو تفكير القرن التاسع عشر أو ما قبله وليس تفكير القرن العشرين . وقد تغير العالم ولم نحس نحن هذا التغير لهذه الحيلولة بيننا و بين التفكير الجديد .

بل إننا نجهل حتى التفكير القديم ومبادئ الثقافة العامة التى يحتاج إليها كل مبتدئ . فليس فى اللغة العربية كتاب عن الصين أو الهند أو تاريخ ألمانيا أو أمريكا الجنوبية أو نحو ذلك من المؤلفات التى لا يمكن أن تصطدم بالأغراض القيصرية إلا من ناحية أنها ثقافة عامة قد تحدث عطشاً إلى القراءة والدراسة . وعندئذ يغدو تأليف الكتب تجارة رابحة يقبل عليها القراء فيحترفها المفكرون .

وقد جهلنا النزعات الجديدة بسبب هذه الأمية التى شملت الشعب حتى لو أن أحدنا نقل إلى العربية كتابا حديثا عن نظرية التطور أو الحركة الاشتراكية أو النزعات الفنية الجديدة أو التحليل النفسى لما استطاع أن يؤدى المعانى فى دقة باللغة العربية لقلة ألفتنا لهذه الموضوعات أو لأننا لم نألفها بتاتا . ولذلك نحن من ناحية التفكير العصرى فى جهل بل فى غيبوبة نفسية أو ذهنية .

و بؤرة الأدب العربى اللامعة فى وقتنا هى القاهرة . ولكن هناك بؤر صغيرة أخرى فى

بغداد أو بيروت ودمشق . و بعض هذه البؤر يمتاز بالتجدد أكثر من القاهرة . فإن بيروت تعالج مشكلات العالم بحرية فكرية ليس لها نظير فى مصر . وكذلك تفعل أحيانا بغداد . أما دمشق فلا تزال تجعل همها الأول دراسة العرب والتزام التقاليد العربية .

وميزة بيروت علينا أنها كانت منذ أكثر من ثمانين سنة مقر جامعتين عصريتين هما الجامعة الفرنسية والجامعة الأمريكية . وهذا غير عشرات المدارس التبشيرية فى المدن والقرى الصغيرة . لأن اللبنانيين لم يعارضوا التبشير فانتفعوا بهذه المدارس وتعلموا العلوم العالية قبلنا . وقد مرت علينا سنوات كنا نجلب الأطباء للجيش المصرى ، والموظفين للسودان ، من جامعتى بيروت . وبالطبع هناك أسباب أخرى لهذا العمل . ولكن مما لا شك فيه أن اللبنانيين انتفعوا كثيراً بمدارس المبشرين وبهاتين الجامعتين حتى يمكن أن نقول إن الأمية قد محيت من لبنان منذ أكثر من ثلاثين سنة أو أوشكت فى حين هى لا تزال متفشية بيننا .

والمدارس التبشيرية على الرغم مما قد تحدث من مخالفة للعقائد تخدم الأمة التى ترضى بتعليم أبنائها فيها . ونهضة الصين تعزى إلى حد عظيم إلى هذه المدارس . ولكن الهند لم تنتفع مع الأسف بهذه المدارس لأن الحكومة المتسلطة كانت ولا تزال تمنع المبشرين المسيحيين من تجاوز الشواطىء إلا على مسافة لا تزيد على خمسة أميال . ولست فى حاجة هنا إلى إيضاح مسهب لهذا العمل .

وما فعلته حكومة الهند من منع المبشرين قد فعلناه نحن شعبا وحكومة . ولو أننا تسامحنا — كما فعل اللبنانيون — لكان فى أنحاء بلادنا الآن نحو ألف مدرسة راقية ينفق عليها الأبرار من الأمريكيين وغيرهم . وعندئذ كنا نكون أمة متعلمة مئة فى المئة مثل اللبنانيين . ولكنا آثرنا خطة الحكومة « الهندية » على الخطة اللبنانية . وأصبحنا نحن والهنود سواء فى تفشى الأمية .

وسوريا — بعكس لبنان — رجعية التفكير لهذا السبب أيضا . ونحن نعرف فى مصر أن الطبقة المستنيرة من الأمة هى تلك التى تعلم أفرادها فى مدارس المبشرين الفرنسيين . وهم مع الأسف أفراد قلائل . ولكنهم يتصلون عن طريق اللغة الفرنسية بالعقل العام ويدرون بالتطورات العالمية ويقرأون الصحف والكتب الفرنسية . ويمتاز شبان اليهود والسوريين

والإيطاليين واليونانيين فى قطرنا بهذا التعلم الفرنسى فى مدارس المبشرين الفرنسيين . وهم بالطبع لا يقرأون المؤلفات العربية . ولكن ثقافتهم عصرية . وهم يضعون أناملهم كل يوم على نبض العالم يعرفون تطوراته ونزعاته .

على أن ما فقدناه توشك الجامعتان العصريتان بالقاهرة والإسكندرية أن تعوضنا منه . فهنا دراسات عصرية جديدة هى الآن خميرة صغيرة . ولكنها مثل الخمائر ستربو وتتفشى فى أنحاء البلاد وتكوّن لنا ثقافة جديدة سوف تجعلنا نعيش بأذهاننا ونفوسنا فى القرن العشرين .

وقد احتجت إلى هذا البيان مع قلة قيمته فى الإرشاد الشخصى للشاب لكى نعرف العوامل الخفية والجلية التى عملت فى تأخير ثقافتنا العصرية .

وأدبنا العربى — لهذه الأسباب التى ذكرنا — يعجز عن ترقية الروح المصرى . وما فيه من حياة إنما هو بصيص نرجو أن يكون نوراً مشرقا . ونحن لانزال فى مشكلة لم تحل وإنما نرجو حلها . ولباب هذه المشكلة أننا يجب ، بالمدرسة والجامعة والكتاب ، أن نربى جمهوراً عصريا مستنيراً يستطيع أن يتفاعل مع المؤلف العصرى ويطلبه .

الحضارة المصرية القديمة

هناك ثلاثة أسباب تحملنا على دراسة التاريخ المصرى القديم . أولا أنه تاريخ مصر ونحن مصريون نعيش فى جو من العقائد والعادات التى تغلغلت فى بيوتنا ومعابدنا وتأثرت بها عواطفنا والتى يرجع كثير منها إلى أيام الفراعنة . وقد يقال إن جميع هذه العقائد أو معظمها خرافى . ولكن للخرافة قيمتها فى التطور الاجتماعى . ثم هناك كثير من الكلمات الفرعونية التى لا تزال حية فى البيئة العائلية وبيئات الريف لا يصح لمثقف مصرى أن يجهل أصلها .

وسبب ثان لدراسة هذا التاريخ الفرعونى أنه فى الحقيقة ليس تاريخ مصر وحدها بل تاريخ الحضارة الأولى للعالم . ونحن حين ندرسه إنما ندرس البواعث البشرية الأولى لإيجاد ثقافة زراعية وكيف نشأت الأديان والحكومات والقوانين والأخلاق . ولا يمكن إنجليزيا أو صينياً أو برازيلياً أن يعد نفسه مثقفا مالم يدرس تاريخ مصر . ففى مصر — دون أقطار العالم — انتقل الإنسان من سذاجة الطبيعة والغابة إلى وجدان الزراعة والحضارة . ومن مصر تفشت المعارف أو بالأحرى العقائد الأولى وعمت الدنيا القديمة وأوجدت الحضارات الأولى فى القارات الخمس . والأساطير التى شاعت فى مصر فى العصور الفرعونية انتقلت إلى كثير من الأقطار واتخذت أشكالاً محلية مع احتفاظها بالأصول المصرية . فإن عبارة « ابن الإنسان » التى نجدها فى الإنجيل نجدها أيضا فى الدولة الثانية عشرة فى مصر . وصلوات إخناتون تذكر أحيانا بحروفها فى التوراة . وتحنيط الموتى قد وجد عاماً فى جزر الشرق الأقصى وأمريكا على الطريقة المصرية . وكثير من عقائد الفراعنة بشأن الدين لا تزال حية فى بعض الأديان الراهنة . بل إن رندل هاريس يعتقد أن كثيراً من أسماء المدن فى بريطانيا إنما هو أسماء مصرية قديمة . ولعل القارىء لا يعجب بعد ذلك إذا عرف أن الأسماء الأربعة العربية للقمح إنما هى مصرية فرعونية . ومن هنا تخصص عشرات المجلات الأوربية لدراسة عصور الفراعنة .

ولا يسع الشاب المثقف أن يهمل كل هذا . ثم هناك سبب ثالث يحملنا على دراسة الفراعنة

وهو أن مصر معرض من أفخم المعارض فى العالم للآثار القديمة . فنحن نمتاز بمتحف ليس له نظير فى أى قطر آخر يحوى من الآثار ما يعد أحقرها تحفة فذة فى تاريخ البشر . ثم هناك مئات الآثار المتفرقة فى مدن الصعيد والوجه البحرى ، آثار السذاجة البدائية للإنسان قبل الزراعة ثم آثار الحضارة الأولى حين شرع الإنسان يتهجأ كلمات الحكومة والدين والفضيلة والعائلة . وكثير من أبناء الأمم الأخرى لا يعدون ثقافتهم كاملة مالم يزوروا مصر ويعاينوا آثارها .

وعلى كل مصرى قادر أن يحج إلى هذه الآثار وأن يدرسها ويفحص عن أصولها . وهو حين يفعل هذا إنما يدرس كثيراً من أصول الدين والأخلاق والسيكلوجية . وهو إذا كان على معرفة بإحدى اللغات الأجنبية فإنه واجد مئات الكتب عن تاريخ الفراعنة ومنها المطول والموجز والعام والخاص . وحسبه أن يسأل عن أسماء برستد وبروجش وبترى واليوت سمث وبيرى وماسبيرو . وهذا غير المؤرخين القدماء مثل هيرودوتس وبلوتارك .

أما فى اللغة العربية فيمكن القارىء أن ينتفع بقراءة مؤلفات سليم حسن وأنطون ذكرى وما ترجم عن برستد الى اللغة العربية وعبد القادر حمزة وسلامه موسى .

وهنا نحتاج إلى التنبيه ، وخاصة لإخواننا العرب فى العراق أو سوريا أو لبنان أو فلسطين أو تونس أو غيرها ، بأن دراسة الشاب المصرى للفراعنة لا تعنى بتاتا تحيزاً تاريخياً للثقافة الفرعونية دون الثقافة العربية . فإنه ليس هناك أسخف من التعصب للتاريخ القديم . ولكنا نحن ندرس الفراعنة لأنهم أسلافنا وجدودنا . ولأننا نكشف بهذه الدراسة عن أصل الحضارة عامة ولأن مصر حافلة بالآثار الفرعونية التى لا يسع شابا مثقفا أن يجهلها . ويجب كذلك على العراقى أن يدرس تاريخ البابليين والسومريين والكلدانيين الذين سكنوا بلاده . كما يجب على الفلسطينى واللبنانى والسورى أن يدرسوا تواريخ بلادهم . وليس فى شىء من هذا دعوة إلى الانشقاق أو كراهة للاتحاد الثقافى العربى .

لقد عنينا فى فصول سابقة بإيضاح القيمة الكبيرة لدراسة الثقافة العربية القديمة . ويجب ألا تقل عنايتنا بدراسة الثقافة الفرعونية عنها .

اللغة الأجنبية

كان جيته الأديب الألمانى الكبير يقول : « من لا يعرف غير لغته لا يعرف لغته » .

وذلك لأنه بالمقارنة يستطيع أن يصل إلى الحقائق اللغوية التى لا يدريها المقتصر على لغته وهو يترقى بهذه المقارنة إلى إدراك المميزات للغته الأصلية كما يقف على عيوبها . وفى كل لغة راقية ميزات وعيوب . ونحن حين نقرأ الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية نقف من المعانى فيهن على أضواء وظلال تختلف عما عرفنا فى لغتنا العربية . وهذه المعانى تجعلنا أفهم للغتنا وأكثر إدراكا وتقديرا للمحاتها الخفية .

وهذا إلى أننا نتصل عن سبيل اللغة الأجنبية بعشرات من العلوم والفنون لا نقول إنها لم تعالج المعالجة الحسنة فى اللغة العربية بل إن مجرد أسمائها لم يعرف إلى الآن فى لغتنا . وذلك لأن اللغات الأوربية سبقت لغتنا فى النهضة الكبرى وارتفعت برقى الشعوب التى تتكلم بها . وفى القرون الخمسة الأخيرة حين كان الأتراك يسحقوننا والمماليك يتهتكون فى الاستبداد بنا كان الأوربيون يغرسون الأصول لحضارة بشرية عالمية . وقد عالجوا لغاتهم بحيث صارت تؤدى المعانى الدقيقة وتعين المفكرين على الابتكار والتوليد بما فيها من كلمات جديدة نمت بها وارتقت .

واللغات الأوربية العصرية تختلف ، زيادة على ما ذكرنا ، من لغتنا فى المزاج الأدبى . فإن لغتنا اقتباسية تقليدية كثيراً ما يقوم الاقتباس فيها مقام التفكير . أما اللغات الأوربية فيعتمد كتابها على الابتكار فى تأليف المعانى فيكسبونها حيوية ونشاطا لا تصل إليها لغتنا فى وقتنا الحاضر . وظنى أن هذا الجمود الذى نجد فى لغتنا ، أو بالأحرى أن هذا الجمود الذى يعمد إليه بعض كتابنا فى الاعتماد على الاقتباس والتقليد بدلا من الابتكار والتفكير ، إنما يرجع إلى أن لغتنا محرومة من نحو مئة وعلم وفن . وهذا الحرمان قد جعلها فى قحط للمعانى المبتكرة فانتكس الكتاب إلى المعانى القديمة واقتصروا عليها يجترونها ويقتبسون عبارات القدماء المزخرفة كأنها تفكير وابتكار .

والشاب المصرى أو العربى الذى يريد أن يستنير فى عصرنا يجب أن يعرف لغة حية

مثل الإنجليزية أو الألمانية أو الروسية أو الفرنسية . وهو إذا لم يعرف إحدى هذه اللغات فلن يستطيع أن يعد نفسه حاصلا على ثقافة عصرية . وربما سنبقى على هـذه الحال مدة طويلة إلى أن يتغير مزاج الأمة كما تغير مزاج الأتراك والصينيين والهنود فنقبل على الحضارة العصرية ونعيش فيها بنفوسنا كما نعيش فيها أو نكاد نعيش فيها بأجسامنا .

وليس شاقا على الشاب المصرى أن يتعلم لغة أجنبية فإنه إذا أرصد من وقته كل يوم ساعة لقراءة جريدة فرنسية أو إنجليزية تصدر عن القاهرة مع بعض الكتب من الأدب العالى الفرنسى فلن يمضى عليه عام حتى يكون قد قطع شوطاً كبيراً فى فهم هـذه اللغة . وبالطبع يحتاج الراغب فى هذه الدراسة إلى دروس ابتدائية تمهد العقبات الأولى على يد مدرس متمرن . ولكنه لا يحتاج إلى هـذا المدرس أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر . ثم هو بعد ذلك يستقل .

ويمكننا أن ندرس أى لغة أجنبية بإغفال النحو إغفالا تاما (فى الإنجليزية مثلا) أو جزئيا فى سائر اللغات . وأن نجعل الجملة — لا الكلمة — وحدة التعليم والفهم . ونحن بالطبع نغفل قواعد النحو لأننا لا نريد أن نكون كتابا بل نطمع إلى أن نكون قارئين فقط . وتمتاز اللغة الإنجليزية امتيازاً عظيما جداً بسهولتها وخلوها من الجنس إذ ليست الأشياء فيها مذكرة أو مؤنثة . وقد يكون هـذا الامتياز أحد الأسباب لأن تصبح يوما ما لغة عالمية . والمفكرون من الإنجليز مثل أوجدن يزيدون هذا الامتياز قوة بإلحاحهم فى تيسير اللغة الإنجليزية بحذف الكلمات الزائدة التى يمكن الاستغناء عنها .

وعندما نقارن بين خريجى المدارس الفرنسية والمدارس الحكومية التى تعلم الإنجليزية نجد أن أولئك يمتازون بالقدرة على قراءة الكتب الفرنسية فى حين يعجز هؤلاء عن قراءة كتاب فى اللغة الإنجليزية . بل لقد رأينا حتى صبيانا فى السنة الثانية أو الثالثة بالمدارس الفرنسية الثانوية يقرأون الكتب الفرنسية ويتذوقون أدبها فى حين يحتاج طالب الجامعة الذى تعلم الإنجليزية إلى مجهود كبير جدا لفهم كتاب باللغة الإنجليزية . ولسنا ننكر أن التفوق فى اللغة الفرنسية قد تحقق على حساب اللغة العربية التى تهملها المدارس الفرنسية . ولكننا نعتقد أن من الممكن مع ذلك أن نبتكر برنامجاً دراسيا للمدارس الثانوية يجمع بين إتقان اللغتين العربية والأجنبية . وذلك بالاستغناء عن بعض المواد العقيمة مثل الجبر وعن

اللغة الأجنبية الإضافية حتى يتوافر الوقت لدراسة لغتنا مع لغة أجنبية واحدة . ويجب على مدارسنا الثانوية أن تخرّج مثقفين ولا تقنع بإخراج متعلمين . والفرق بين المتعلم والمثقف أن الأول يدرى بعض المواد التى امتحن فيها فتعلمه فعل ماض . أما المثقف فيرغب فى التعلم . فثقافته شهوة حية تعيش معه فى المستقبل . فنحن حين نعلم التلميذ فى المدارس الثانوية اللغة الإنجليزية بحيث نفتح له المرعى الخصيب لهذه اللغة فى الآداب والفنون والعلوم فإنما نهيئه بثقافة سوف تجعله يشترى الكتب ويقرأ الجرائد والمجلات فى هذه اللغة مدى حياته . فنحن لم نكسبه تعلما بل أكسبناه خطة وبرنامجاً . أما حين نعلمه الجبر فإننا نثق بأنه لن ينتفع به بعد تخرجه وخاصة إذا لم يلتحق بجامعة .

وعنايتنا بالمدارس الثانوية يجب أن تكون كبيرة . لأن المدارس الابتدائية لا تكفى للتثقيف . ولأن الالتحاق بالجامعة من حظ الأغنياء فقط . ولسنا نقصد بهذا إلى أن خرّيج المدارس الإبتدائية لا يمكنه أن يطمع فى تثقيف نفسه . لأننا نعتقد أن كل شاب حتى ولو لم يحصل على دراسة ابتدائية يستطيع أن يثقف نفسه إذا كان له النشاط والإرادة . ولكنا نعنى أن المدارس الثانوية تفتح للشاب أبوابا يطل منها على ميادين مختلفة تحرك ذكاءه . فيجب أن ينتفع بهذه المرحلة من التعليم وأن نجعل غايتنا منها تدريب الطالب على تربية نفسه . وخير للشاب أن يعرف لغة أجنبية واحدة يتقنها ويقبل عليها ويتعلق بها من أن يتعلم لغتين سرعان ما ينساهما لأنه لم يعشق أدبيهما وكل ما يذكر منهما هو عناء الدرس واستظهار الكلمات .

وفى اللغة العربية كثير من المعاجم الحسنة — مثل معاجم الياس أنطون الياس — للتثقيف الذاتى فى اللغة الإنجليزية . وكذلك هناك كتب كثيرة فى دراسة اللغة الفرنسية .

ولو شئنا أن نختار للقارىء الذى يجهل اللغات الأجنبية وينشد تعلم إحداها لكى تكون مفتاحا لتثقيفه الذاتى ونموه الدراسى لاقترحنا الإنجليزية . فهى تمتاز بسهولتها كما تمتاز بوفرة الكتب التى تطبع فيها والتى لا تقل فى اليوم عن مئتى كتاب جديد . وهى لغة مئتى مليون من أرقى البشر فى أمريكا وأوربا واستراليا والشرق الأقصى . ولا يكاد يستغنى عنها أوربى متمدن . ومستقبلها مع ذلك سوف يكون أعظم من حاضرها .

والشاب المصرى الذى لم ينشأ على لغة أجنبية والذى قضى فترة من شبابه وهو لا يقرأ

سوى المؤلفات العربية سوف يجد بعد تعلمه إحدى اللغات الأجنبية واطلاعه على آدابها والإشتباك فى مشكلاتها الثقافية أنه قد حقق لنفسه تطوراً بل انقلاباً عظيما وأنه قد خرج من المنظر القروى المحدود إلى الأمداء العالمية البعيدة .

وليذكر القارىء ما سبق أن قلنا عن الفهم السلبى والفهم الإيجابى فى الفصل الخاص بدراسة اللغة العربية فإنه يمكنه أن ينتفع به هنا .

الآداب العالمية

الأدب مثل الفلسفة يجب أن يتبع فيه كل قارئ مزاجه الخاص فلا يتقيد بآراء الغير . ولكن يجب أن نقرأ وندرس الآداب القديمة والحديثة لكى نطلع ونفهم ثم نستنبط منها رأينا أو آراءنا الخاصة فى ماهية الأدب . وربما كانت كلمة « الذوق » هنا أوفق للتعبير من كلمة « الرأى » لأننا نتذوق الأدب والموسيقا والفلسفة أكثر مما نرتأى فيها . ولكن هذا الذوق غير موروث لأنه إنما يكسب بالدراسات والاختبارات نعنى الدراسات التى تشمل التاريخ والدين ، ونعنى الاختبارات التى تمر بنا فى حياتنا . ومن كل هذه ، أى الأدب والفلسفة والدين ، نستقطر تلك الحكمة التى نعيش بها فترة حياتنا على الأرض . وكل من هذه الثلاثة يحتاج إلى الآخر والتوسع فى أحدها يحملنا على دراسة الاثنين الآخرين . وفى النهاية نجد أنه قد تكونت لنا من هذه الدراسات ديانة بشرية وضمير عالمى وتبعات سامية هى مزيج من العناء واللذة اللذين يتألف منهما الحب . كحب الأم لأولادها . فنحن عندئذ نرأم بالدنيا ونعنى بتطورها ورقيها ونلتذ الألم فى سبيل هذا الرقى .

وقد سبق أن كتبنا فصولا فى ضرورة الدراسة للأدب العربى ولكننا لن نحصل على التربية الحقة إذا اقتصرنا على دراسة هذا الأدب . فيجب أن ندرس الآداب العالمية ونقرأ أحسن ما كتب فى القرون الخمسين الماضية من صلوات أخناتون المصرى إلى قصص دستوفسكى الروسى .

وفى العالم مؤلفات استقرت وبرزت قيمتها على توالى القرون فلسنا فى حاجة إلى تعديد وشرح لها . ويسهل على القارئ أن يعرف تولستوى ودستوفسكى وجوركى فى روسيا . وكذلك جيته وشيلر فى ألمانيا . وبيرون وبرناردشو فى انجلترا . وڤولتير وروسو وأناطول فرانس فى فرنسا الخ .

واللغات الكبرى مثل الألمانية أو الإنجليزية أو الفرنسية تحوى جميع هذه المؤلفات الأدبية لأنها ترجمت إليها مع العناية والدقة . وبدهى أننا فى حالنا الحاضرة لا نستطيع أن نقول مثل هذا القول عن اللغة العربية .

وقراءة هذه الآداب تخرجنا من الأنانية الوطنية إلى الآفاق العالمية وتزيد قدرتنا على الحب للبشر . وليس شيء أقرب إلى الدين من الأدب . ونعنى الأدب العالى . فإن مقامات الحريرى تعد مثلا نوعا من الأدب . ولكنه لا يثير فى أنفسنا الحاسة الدينية ولا يربى ضميرنا لأنه تسلية خفيفة لا أكثر . ولكن قراءة « الأخوة كارامازوف » للكاتب الروسى دستوفسكى تغرس فينا الروح الدينى وتستنبط منا البر وتحملنا على الصلاح بل القداسة . وأذكر أنى قبل نحو عشرين سنة حين قرأتها كتبت مقالا فى إحدى المجلات قلت فيه إن هذه القصة يجب أن تضاف إلى الكتب المقدسة . وليس فى العالم كتب كثيرة يمكن أن توصف بهذا الوصف .

وكبار الأدباء فى العالمين القديم والحديث كانوا ينبعثون بهذا الروح الدينى إلى تأليف كتبهم الأدبية . وكانت حياة كل منهم لهذا السبب حياة الجهاد الدينى . فإن چيته كان يقصد إلى تربية الشخصية والنموالنفسى . وبرناردشو قد أرصد حياته لتغيير العالم من الانفرادية إلى الاشتراكية . وولز قد ضحى حتى بفنه لكى يصل إلى حكومة عالمية تعم التعليم والسلام والرخاء . وڤولتير قد كافح طغيان العرش والكنيسة الخ .

ويمكننا أن نقيس الأدب بجملة مقاييس ليس أقلها قيمة هذا المقياس الذى نعين به الناحية الدينية للكاتب ومؤلفاته نعنى حياة المؤلف ومادة مؤلفاته . فالكاتب الذى لا يحملنا على الصلاح والقداسة قد نعجب بفنه وبراعته وذكائه وعبقريته ، ولكنه يبقى مع ذلك ناقصاً لأنه لم يرفعنا إلى الحدّة الدينية التى نحس بها المظالم فنثور عليها أو لم يخرجنا من المنظر القروى الى المنظر العالمى أو لم يرفعنا من الاستهتار فى الحياة إلى الجد والخدمة .

ويمكن أن نقرأ الكتب المقدسة نفسها باعتبارها كتباً أدبية . والواقع أن الأدب والدين يتلاقيان إذا ارتفعنا حتى لا نكاد نستطيع التمييز بينهما . فإن قصة « نشيد الإنشاد » فى التوراة تعد مثلا قطعة أنيقة من الأدب الذى يدعونا إلى إيثار الحب الساذج الطاهر مع الفاقة على استخدامه للوصول إلى الثراء والجاه . وهذه القصة يمكن أن تضاف إلى قصة بول وفرجينى للمؤلف الفرنسى سان بيير أو إلى مؤلفات جان جاك روسو . كما أن جهاد ولز لتوحيد العالم فى عصرنا هو فى صميمه جهاد دينى ولا عبرة بأن يكون ولز مع ذلك ملحداً . فإن بوذا الذى لا يزال يؤمن به نحو خمسمئة مليون من البشر كان أيضا ملحداً .

وهكذا الشأن فى مؤلفين آخرين ليس من الشاق على العارف بإحدى اللغات الأجنبية أن يصل إليهم . وهو ينمو بمؤلفاتهم ويربى شخصيته ويرقى نفسه وذهنه بدراستهم . وهنا يحتاج القارئ إلى نصيحة سيجد لها تكراراً فى كتابنا هذا هى أنه يجب عليه أن يتعمق فى دراسة كاتب واحد قد يكون تولستوى أو شو أو جيته أو فولتير . وهو بالطبع يختاره لأنه لجملة اعتبارات يميل إليه أكثر مما يميل الى غيره . وعليه عندئذ أن يتوسع ويتعمق فى دراسة هذا الكاتب يدرس حياته ومؤلفاته معا حتى يعيش فى عصره ويحس مشكلاته الفنية والدينية والاجتماعية والسياسية وهى بالطبع مشكلات تتكرر ولكن رؤية الأديب العظيم تجعلنا نزداد لها فهماً وبصيرة وهذا إلى دراسة غيره من الأدباء .

وإلى هذا يجب الاشتراك فى المجلات الكبرى الأوربية والأمريكية حتى يبقى القارىء على دراية بالتيارات العامة فى الأدب . لأن هذه المجلات تعنى كثيراً بإبراز الجديد من النزعات الأدبية والالتفات إليها بالتقدير العادل .

دراسة العلوم

من أعظم الغايات التى نرمى إليها من التثقيف الذاتى أن نفهم العصر الذى نعيش فيه بل إن دراسة عصرنا يجب أن تكون أولى الدرجات لدراسة أى عصر آخر . وحضارتنا القائمة يجب أن تكون المقياس الذى نقيس به أى حضارة أخرى فى العصور الماضية .

والحضارة العصرية أى حضارة القرن العشرين بما فيها من فوضى أونظام ومن مشكلات قد حل بعضها و بعض منها لا يزال قيد الحل ، هذه الحضارة هى ، فى كثير من وجوهها ثمرة العلم .

ولكن ما هو العلم ؟ إن مجلة نيتشر التى تتخصص لنشر العلوم ترفض استعمال هذه الكلمة فتقول إن هناك موضوعات للدراسة مثل علم البيولوچيا أو علم السيكلوچيا ولكن ليس هناك علم مطلق لأننا حين نقول علم « البيولوجيا » إنما نعنى ترتيب المعارف الخاصة بالحياة بدقة وعناية تجمع الصحيح وترفض الخطأ . فقد كانت البيولوچيا تدرس منذ أيام الإغريق بل قبل ذلك ولكنها لم تكن علماً . أى أنها كانت معارف مجموعة قد اختلط فيها الخطأ بالصواب ولم تكن لها مقاييس دقيقة جامعة ومانعة فلما تقدمت هذه المعارف ورتبت بالدقة والعناية صار عندنا منها علم البيولوچيا .

فعند كتاب هذه المجلة أن كلمة « علم » لا تعنى سوى الطريقة الدقيقة للدراسة والبحث أى دراسة و بحث أى موضوع فى العالم سواء أكان هذا الموضوع نحو اللغة أو الچيولوچيا أو العائلة . فلا يمكن أحداً منا أن يقول إنه يدرس علماً وقصاراه أن يدرس هذه المادة أو تلك بالطريقة العلمية أى بطريقة الترتيب والدقة اللذين يجمعان الصحيح و يمنعان الخطأ . والمعارف التى تبحث فى عصرنا بالطريقة العلمية كثيرة جداً بل إن منا من يرفض المعارف ما لم تجمع وترتب بهذه الطريقة . والطريقة العلمية هى ثمرة القرون الثلاثة الماضية وأعظم ما هيأ لها وجعلها ممكنة هو الأرقام الهندية التى نقلها العرب إلى أور با . ثم أعظم ما جعلها فى خدمة البشر هو التجربة .

وليس شك فى أن النظر العلمى الجديد سوف يغير الدنيا ليس فقط من حيث الإنتاج

والتوزيع بل أيضا من حيث الأخلاق والاجتماع والدين . لأن الأخلاق والاجتماع والدين تتوقف جميعها فى كل مكان وزمان على طريقتى الإنتاج والتوزيع . وما نكابده فى الوقت الحاضر من مشكلات التعطل والاستعمار والقيصرية والاستيلاء على الأسواق والحروب كل هذا هو ثمرة الإنتاج العظيم الذى أوجدته الآلات الكبيرة أى « ثمرة العلم الميكانى » مع التوزيع القليل الذى لا يزال يتبع الطرق التقليدية غير العملية .

ويجب على كل من ينشد الثقافة لهذا السبب أن يدرس الطريقة العلمية لكى تتفتح بصيرته لفهم المشكلات العالمية القائمة وأيضاً كى يستنير ذهنه برؤيا العالم الجديد فلا ييأس من الجهل الفاشى بين الساسة والقادة .

ولكن كيف ندرس العلوم ؟

وجوابنا هو أن ندرس تلك العلوم التى تتصل اتصالا صميما بعصرنا الحاضر وأوجدت لنا مشكلاته . وكلما كان اتصالها أهمّ كانت ضرورة الدراسة أوجب . لأن غاية الدراسة هى الفهم . ولن نستطيع أن نفهم عصرنا إلا إذا عرفنا الجذور التى نبتت منها مشكلاته ، ومتى عرفنا هذه الجذور استطعنا أن نهتدى إلى الحلول .

وأكبر المشكلات فى عصرنا هى مشكلة التعطل الذى يصيب العمال لوفرة الإنتاج فيجب أن نبحث الأسباب لهذه الوفرة . وهى بالطبع تعود إلى المخترعات الميكانية والكيماوية فى مدى المائة والخمسين من السنين الأخيرة .

والمصرى الذى تعود أن يستمع للقول بأن القطن هو ركن الثروة المصرية يجب أن يعرف من الكيمياء مايدرك به قيمة الأقمشة الكيماوية التى تطرد القطن من العالم وتوشك أن تمحو زراعته . والعالم الآن قد تغير تغيراً كبيراً يشبه الانقلاب بعلمين اثنين هما الميكانيات والكيمياء . ومن الحسن لكل راغب فى التثقيف الذاتى أن يتابع هذين العلمين فى نموهما الذى يمكن أن يعد نمواً للحضارة .

وهناك مشكلة السلالات البشرية وتفاضلها والتناسل من حيث تحديده وترقيته . وقد أسمعنا هتلر عنهما الشىء الكثير . فيجب أن ندرس الإنثربولوجية واليوجنية .

وهذا العلم الثانى نحتاج إليه فى مصر كثيراً حتى تسن القوانين التى تمنع غير الأكفاء ، للأبوة أو الأمومة الحسنة ، من التناسل .

ثم هناك العلوم التى ترقى الفرد ذهنياً ونفسياً وجسمياً وروحياً . فإن البيولوجية ضرورية لكل مثقف لأنها توسع الآفاق الروحية وتعقد بيننا وبين الحيوان صلة لها أكبر المغزى فى الإدراك الدينى السامى وفى فهم الأسباب التى عملت وما زالت تعمل للرقى البشرى . ثم هناك السيكلوجية التى نفهم بها تصرفنا وسلوكنا . ولسنا فى حاجة إلى شرح مسهب لكى نوضح ضرورة الدراسة لعلوم طبية مختلفة مثل الاغتذاء والفسيولوجية لكى نتوقى الأمراض ونحتفظ بصحتنا فى شبابنا وشيخوختنا .

ولكى نحصل على المرانة الذهنية العلمية يجب أن نتعمق فى دراسة علمية معينة لأحد الموضوعات من البيولوجية أو الفلك أو أى موضوع آخر مما نحب . ونجعل هذه الدراسة هواية الحياة . ثم نتوسع — بلا تعمق — فى دراسة الموضوعات الأخرى على سبيل الإلمام . ومتى استطعنا أن ندرك أن كثيراً من الارتباك الذهنى ، فى السياسة والدين والاقتصاد وغيرها ، إنما يعود إلى أننا لا نعالج هذه الموضوعات بالطريقة العلمية ، بل نتركها بما تراكم عليها من تقاليد وعادات تحول دون تطورنا ورقينا ، عرفنا قيمة الدراسة العلمية .

***

ولا نظن أننا فى حاجة إلى كتابة فصل للتمييز بين الأدب والعلم . ولكنا نحتاج إلى كلمات موجزة يسترشد بها من يتوخى التثقيف الذاتى .

فكتب الأدب القديمة هى تراث بشرى يجب أن يقف عليه كل مثقف . ولكن الاقتصار عليها يجعل المنظر خلفيا والتصرف رجعياً والاتجاه تقليديا . والأديب بطبيعة دراسته تليدى الذهن وليس بطارفه . وهو ينعى على عصره ما يحسبه شططا مع أن كل ما فيه أنه يسير على إيقاع ولحن ليسا مطابقين لإيقاع العصور القديمة ولحنها .

ودعاة الآداب القديمة يزعمون أنها مستودع الحكمة البشرية وهى كذلك إلى حد ما ولكن قليلا من التفكير يوضح لنا أن المستودع الأصلى للحكمة البشرية هو الإنسان . وأن الآداب القديمة هى بعض حكمته وليست كلها .

ونحن نحس وجدانا بشريا جديداً يعزى كثير منه إلى العلم وليس إلى الأدب . فإن

العلم هو الذى ربط الأمم الحديثة برباط جديد ورفع الإنسان من وطنية الوطن إلى وطنية العالم . وهو الذى يجعل النظر أماميا نحو المستقبل .

ولـكن مع كل هذا يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن العلم يبحث ماهية الأشياء ويقتصر على ذلك . فهو معرفة أو وسيلة للمعرفة . ولـكن استخدام هذه المعرفة يحتاج إلى الحـكمة التى نستخلصها من الآداب والفلسفات والأديان .

دراسة السياسة

الجريدة هى فطورنا الذهنى فى الصباح . ونحن نقرأ أخبارها ونتأمل صورها فننتعش ونجد المواد للحديث والتفكير سائر اليوم . والجرائد تعنى أكبر العناية بالسياسة الداخلية والخارجية . ولكن عنايتها مقصورة على الأخبار أو الدعاية .

ولكى نفهم الجريدة يجب أن ندرس السياسة أى الأسس التى تنبنى عليها السياسة وهى التاريخ والاقتصاد والسيكلوجية . ومن سوء حظ العالم كله أن السياسة فى الوقت الحاضر يتولى شئونها هواة وصوليون يعجزون عن المعالجة العلمية لمشكلاتها . ومن هنا تعلقهم بالخطابة الانفعالية بدلا من اعتمادهم على الوجدان والتعقل . ومن هنا هذه الفوضى العامة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل هذه الحروب التى تزلزل الأمم .

وإذا تركنا الأمم البدائية والمتوحشة وكذلك الأمم الشرقية التى لا تزال تشقى بأمرائها أو ملوكها المستبدين وجدنا ثلاثة أنواع من النظم تستحق من الرجل المثقف الدراسة الجدية هى النظام الديمقراطى والنظام الفاشى والنظام الاشتراكى .

فأما النظام الديمقراطى فهو على أحسنه فى أمم أوربا الصغيرة مثل سويسرا وسويد ونروج ودنمركا . ويأتى بعد هؤلاء الولايات المتحدة وبريطانيا . وهذا النظام ينشد حرية الفرد ويحاول أن يتوقى التفاوت الاقتصادى بقوانين مخففة من قسوته . ومع هذا التخفيف يستطيع الإنسان أن يعيش فى حرية مدنية وقد يجتاز القلاقل الاقتصادية . وليس شك فى أن الدمقراطية المدنية ستنتهى يوما ما إلى ديمقراطية اقتصادية .

وهذه الديمقراطية الاقتصادية هى ما نجد فى عصرنا فى دولة الاتحاد السوفيتى حيث يسود النظام الاشتراكى . ويجب على كل مثقف أو من ينشد الثقافة السياسية أن يدرس هذا النظام . والكتب التى ألفت فى شرحه ونقده تعد بالمئات فى اللغات المتمدنة . وبالطبع هناك أمم غير متمدنة تمنع نشر الكتب الخاصة بشرح النظام الاشتراكى فى روسيا . ولكن يجب أن نذكر أن ثورة ١٩١٧ التى انتهت بخلع القيصر وإيجاد حكومة العمال قد غيرت المجتمع بين ١٩٠ مليون إنسان أى نحو عشر الدنيا . ولا يسع مثقفاً أن يهمل هذا التغيير . وهذه

الثورة هى الآن لنا بمثابة الثورة الفرنسية الكبرى لأبناء القرن التاسع عشر . فلو أن أحداً كان يعيش بين سنة ١٨٠٠ و١٨٥٠ وكان يهمل دراسة هذه الثورة لما استطاع أن يدرك التطورات الاجتماعية والسياسية فى عصره . وكذلك نحن لا نفهم تطورات عصرنا إذا أهملنا دراسة الثورة الروسية .

فأما الفاشية فهى دخان يخيم على ألمانيا وإيطاليا وبعض الأمم الأخرى (إنى أكتب هذا فى يونية ١٩٤٣) وسوف ينقشع لأنه خلو من ميزات الديمقراطية والاشتراكية وليس فيه شىء من عوامل البقاء . وهو يعيش الآن بقوة الآلة الحربية الضخمة التى أوجدها والتى لا يستطيع أن يعيش بدونها .

وهناك مفتاح نفهم به أدق فهم تلك الانقلابات التى تحدث فى عصرنا فى السياسة العالمية نعنى به مفتاح النظرية الماركسية فى التفسير الاقتصادى للتاريخ . فإذا درسنا هذه النظرية عرفنا البواعث والمحركات التى انتهت بالفاشية فى إيطاليا وألمانيا والاشتراكية فى روسيا بل عرفنا أيضا البواعث والمحركات للقيصريات البريطانية والفرنسية والهولندية وللاستعمار فى جميع ألوانه العصرية . والفرق ليس عظيما فقط بل هو فاحش بين من يملك هذا المفتاح ومن لا يملكه . لأن الخبر الصغير فى إحدى الجرائد عن اتفاق سياسى بين دولتين أو اندغام شركتين أو دعوة إلى الدين أو تأييد لرجعية فى آسيا أو أفريقيا أو أوربا — كل هذه الأخبار ومئات غيرها يعود لها مغزى جديد إذا كنا نقرأها ونحن نسترشد بالتفسير الاقتصادى للتاريخ .

والقارئ المصرى يحتاج إلى أن يدرس أكثر من الديمقراطية والاشتراكية والفاشية . فإن القارئ الأوربى يمكنه أن يقنع بدراسة هذه النظم لأن مناخه السياسى يتألف منها أو يتقلب فيها أو يستقر على واحدة منها . أما القارئ المصرى فيحتاج إلى دراسة أخرى هى دولة تركيا التى انسلخت من الشرق وانضمت إلى الغرب بقيادة رجلها كمال أتاتورك الذى يزيد فى عظمته وصدق فراسته وقوة خياله على آلاف ممن يسمون عظماء منذ الإسكندر إلى يومنا . ويجد القارئ فى كتاب عزيز خانكى بك عن هذا الزعيم التركى ما يقفه على شىء من عظمة هذا الزعيم التركى ويحثه على الاستزادة من الدراسة للنهضة

التركية الرائعة . وهو فى هذه الدراسة سيجد أسبابا كثيرة لتأخرنا نحن فى مصر .

وفى اللغات الأوربية كثير من الكتب التى تشرح النهضة التركية وتوضح فلسفة هذا الانقلاب .

وفى ظروفنا القائمة يجب أن ندرس القيصريات العصرية الفرنسية والبريطانية والهولندية وألوان الحكم التى تفشت فى مصر والهند وجاوة وتونس وغير هذه الأقطار كما ندرس الاستعمار بأشكاله المختلفة فى الأمم المتأخرة . والمرجو أن ينتهى الاستعمار وتموت المبادئ القيصرية عقب هذه الحرب . ولكن هذا الرجاء فى الوقت الحاضر يشبه الأمنية الخيالية أكثر مما يشبه الأمل الذى يتحقق . والعالم لا يزال فى حاجة إلى كفاح لتحرير الشعوب الخاضعة كما احتاج من قبل إلى كفاح لإلغاء الرق . ويجب أن نتزود بالإحصاءات السنوية والتعداد الذى يتم كل عشر سنوات مع أطلس جغرافى . وكل هذا متوافر فى لغتنا . ولكن هناك أطلساً سياسياً ينشر فى اللغات الأوربية ويبين التغيرات الإقليمية التى تنص عليها المعاهدات أو تحدثها الحروب . وهذا أيضاً ضرورى لكل من يدرس السياسة ويقرأ أخبارها اليومية . ومما يؤسف له كثيراً أن بعض القراء يهملون الإحصاءات مع أنها المواد الخامة التى يتألف منها كل مشروع إصلاحى . والعقلية الإحصائية هى أسد العقليات لدرس السياسة والاجتماع .

ومن الحسن أيضاً أن يشترك القارئ فى مجلة أوربية سياسية من تلك المجلات الأسبوعية التى تنقل التطورات السياسية وتعنى بإيضاحها .

دراسة التاريخ

لا نستطيع أن نفهم الاقتصاد والاجتماع والأخلاق والسياسة إلا إذا درسنا التاريخ . وزيادة على هذا فإن التاريخ يكسبنا العقلية الروحية البشرية لأنه يشرح جهاد الإنسان نحو الرقى والحرية والحضارة وهو بهذه المثابة يقوى فى أنفسنا روح الخير . ولكنا نعنى هنا التاريخ الحسن الذى يكتب بلا دعاية وطنية بل ينظر إلى البشر كأنهم أمة واحدة تكافح من أجل الحضارة على الرغم من الأخطاء المتكررة .

وقد كان التاريخ يدرس قديماً باعتباره فناً يراد منه الدعاية الوطنية أو المذهبية . وهو كذلك الآن فى الأمم الفاشية حيث هو وسيلة للتعصب والكراهية والحرب . مع أن الرجل المثقف الذى عنى بدراسة التاريخ فى نزاهة ودقة يجد فيه الوسيلة للحب البشرى والسلام والتسامح .

ويجب أن نجعل للتطور البيولوجى أى انتقال الإنسان من الحيوانية إلى البشرية أكبر قسط من دراستنا . أى يجب أن ندرس تاريخ الإنسان قبل التاريخ . وعلى القارئ أن يذكر كتابى هنا وهو « نظرية التطور وأصل الإنسان » فإنه على إيجازه يفتح بصيرته وقد يحمله على الاستزادة .

ثم يجب أن ندرس تاريخ الحضارة فى مصر . لأن هنا فى وطننا انتقل الإنسان البدائى من حياة الغابة وجمع الطعام البرى إلى حياة الزراعة واستنتاج الطعام . وكانت الزراعة الطور الأول للحضارة القديمة فظهر على أثرها الحكومة والدين والكتابة والثقافة الصناعية . ويمكن القارئ أن يسترشد بكتابى عن هذا الموضوع « مصر أصل الحضارة » .

وكتب التاريخ فى اللغة العربية — ونعنى الكتب القديمة — هى مواد خامة لدراسة التاريخ وللتأليف الجديد منها . فلا يمكن القارئ العادى أن يعتمد عليها . وليس فى المؤلفات العصرية العربية موجز فى التاريخ العام كذلك الذى ألفه هـ . ج . ولز وليس فيه مطول فى تاريخ العالم . ونحن من هذه الناحية فى نقص خطير يجعل الصورة البشرية مشوهة فى أذهاننا

ويجعل كل مقتصر على اللغة العربية رجلا ناقص التربية يعيش فى كوكب يجهل تاريخه وتطور سكانه .

وقد سبق فى كلامنا عن الأدب العربى القديم أن ذكرنا كثيراً من كتب التاريخ ولكنا — كما قلنا — نعدها مواد خامة للدراسة ثم هى محدودة لأنها تحصر أخبارها فى العرب ومصر . ونحن نقصد من دراسة التاريخ إلى أن نصير بشريين وليس عرباً أو مصريين فقط . وحرمان لغتنا من كتب التاريخ المسهبة هو تحديد للتفكير العالمى بين شبابنا . والكتب المدرسية الشائعة صغيرة القيمة وهى أشبه بالهيكل العظمى للتاريخ منها بالتاريخ .

والكتب القليلة التى يمكن أن تقرأ فى التاريخ القديم هى كتاب برستد « العصور القديمة » ترجمة داود قربان وكتاب عبد القادر حمزة باشا « التاريخ المصرى القديم » .

وليس فى لغتنا كتب عن تاريخ الإغريق أو الرومان أو الهنود أو الصينيين أو اليابانيين أو الأمريكيين . ولا تزال القرون المظلمة مخيمة فى ظلامها الحالك للقارئ العربى . والنهضة البشرية الكبرى فى القرن الخامس عشر ليس فيها مؤلف فى لغتنا مع أنها جديرة بأن تحدث فى قارئها العربى ثورة فكرية .

ولابد لهذا السبب أن نقول أنه يجب أن نتعلم لغة أجنبية لكى ندرس التاريخ البشرى وقد أنفق على المجمع اللغوى إلى الآن نحو تسعين ألف جنيه لكى يسك لنا كلمات جديدة . ولو أننا أنفقنا هذا المبلغ على ترجمة الكتب الأوربية الحسنة لأغنينا لغتنا بنحو مئة كتاب فى التاريخ وغير التاريخ . ولما كانت تربيتنا لهذا السبب ناقصة .

ودراسة التاريخ تحتاج إلى هذا النظام التالى الذى نذكره ونحن نعرف أن لا فائدة منه للقارئ الذى يجهل اللغات الأجنبية العصرية :

١ — يجب أن ندرس تاريخ هذا الكوكب منذ أن تكوّن إلى أن ظهر عليه الإنسان أى ما نسميه التطور .

٢ — ثم ندرس حياة الإنسان البدائى إلى أن اهتدى إلى حضارة الزراعة فى مصر .

٣ — وهنا ينحتم علينا درس أربعة آلاف سنة من تاريخ الفراعنة لأنه تاريخ التطور الاجتماعى والاقتصادى والدينى فى أشكاله الأولى .

٤ — يجب بعد ذلك أن ندرس الأمم القديمة كالبابليين والفنيقيين والإغريق والرومان والصينيين والهنود .

٥ — ثم دراسة العرب مع زيادة فى التفصيل لعلاقتنا الخاصة بهم .

٦ — دراسة القرون الوسطى .

٧ — دراسة النهضة .

٨ — ثم دراسة التطور الاقتصادى الذى نشأ فى أوربا منذ ١٦٠ سنة والذى ما زلنا فى سياقه . وهنا نحتاج إلى النظرية الماركسية فى التفسير الاقتصادى للتاريخ .

وعلى القارئ أيضاً أن يدرس نحو عشر ثورات عالمية كثورة الإنجليز على الملك تشارلس الأول وثورة الفرنسيين على البوربون والثورة الإمريكية وثورات روسيا وتركيا والصين والهند . فإن الرقى البشرى احتاج مرات كثيرة إلى الثورة .

وخير من أن نقرأ تاريخ أمة بعد أمة يجب أن ندرس تاريخ العلوم والفنون . فإذا درسنا مثلا تاريخ الكيمياء ، وكيف انتقلت من مصر إلى أوربا وانتهت بإيجاد عوامل اقتصادية فى الصناعة والزراعة ، أو إذا درسنا تاريخ الطب أو تاريخ القوانين انفتحت بصيرتنا للفهم أكثر مما لو قرأنا تاريخ مصر أو تاريخ انجلترا الأن الطريقة الأولى توجهنا وجهة بشرية عالمية أما الثانية فتحد من تفكيرنا بحدود القطر الذى ندرس .

دراسة الاقتصاديات

قبل نحو مئتى سنة لم تكن « الاقتصاديات » علما يدرس لأن قيمتها لم تكن معروفة . أو بالأحرى لم يكن الناس فى حاجة إلى هذا العلم لأن طريقة الإنتاج كانت الزراعة . وكانت الصناعات يدوية . وكانت كل أمة تقريباً تعيش عيشة الاستكفاء تنتج حاجاتها وتستهلكها بنفسها . وكانت التجارة بين أمة وأخرى قليلة وأحياناً معدومة لأن المواصلات كانت بطيئة وأحيانا معدومة .

و بكلمة أخرى نقول إن جميع الأمم كانت زراعية فكانت اقتصادياتها راكدة وحضاراتها قروية وكان التغير الاجتماعى بطيئا أو معدوما .

ولكن منذ نحو ١٥٠ سنة تغيرت الدنيا بتغير الوسائل فى الإنتاج وانتقال الصناعات من اليد إلى الآلة وبكثرة وسائل الانتقال وسرعتها . فاتصلت الأقطار البعيدة وتحرك « رأس المال » وتضخم . وأصبحت الشركة « المساهمة » قوة اقتصادية كبيرة الأثر فى الاستغلال والاحتكار والتحكم فى الأسواق الداخلية والخارجية و بعث الاستعمار واستخدام السياسة . وهذه الحركة الاقتصادية الجديدة قد جلبت معها كوارث لا تحصى للعمال وللأمم الزراعية فى أفريقيا وآسيا . ولكنها أيضا قد أحدثت وجداناً جديداً بوحدة العالم أى بضرورة توحيده . وأن رأس المال إذا ترك حراً فى الاستغلال فإنه سيعمم الفوضى والحروب والشرور .

ولذلك تغيرت المشكلة السياسية فى عصرنا فلم تعد خلافا بين أمة وأمة أو بين ملك وشعب بل صارت خلافا بين طبقة الصناعيين والماليين والاستغلاليين و بين طبقات العمال الذين تستعبدهم القوات المالية والتجارية والصناعية . وأصبحنا ندرك العوامل التى تحمل الأمم المتمدنة على الحروب والاستعمار والتسلط القيصرى على الأمم الزراعية الضعيفة .

بل أكثر من ذلك . فإن كارل ماركس قد استطاع أن ينير أبصارنا و بصائرنا بما سماه « التفسير الاقتصادى للتاريخ » وبدون أن نقتنى هذه الآلة الماركسية ونستعملها فى درس الحوادث الجارية فى عصرنا ، أو فى التاريخ الماضى ، فإننا لن نفهم التطورات السياسية أو الاجتماعية أو الأخلاقية فى وطننا أو فى غيره .

ومع الأسف لا نستطيع أن نرشد عن الكتب العربية التى تشرح هذا النظر الماركسى لأنه ليس فى لغتنا مؤلفات عن هذا الموضوع . فإن قوانيننا مع غموضها تجعل إخراج مثل هذه الكتب باعثا على الشكوك من ناحية المسئولية . وعجيب بل غاية فى العجب أن الحكومة المصرية التى بعثت إلى موسكو سنة ١٩١١ ببعثة لكى تتعلم أساليب القيصر نقولا فى مطاردة الأحرار ونفيهم إلى سيبيريا لا تزال تكره الآراء الاشتراكية وتحاربها .

وتاريخ مصر فى مدى السبعين من السنين الأخيرة يوضح هذا النظر الماركسى توضيحاً عظيماً . والمصرى الذى يجهل التفسير الاقتصادى لكوارثنا وفقرنا وأمراضنا ، وتعطيل مواهبنا بمنع التعليم مدى السبعين من السنين الماضية الأخيرة ، يجهل تاريخ مصر . ولن تنفتق له بصيرة فى فهم الحوادث الجارية الآن إلا بهذا التفسير الماركسى . والحكومة التى تمنع دراسة كارل ماركس لا تستحق الغضب من فولتير وحده ، لأنها تعمل على تقييد أقدس ما فى الإنسان ، وهو الذهن ، بل هى أيضاً ، لأنها تعمل لتعميم الجهل بشأن الأسباب الأصيلة التى جعلت مثل مصر أمة متأخرة فى خدمة الماليين تؤدى لهم الأقساط ، وكأن الغاية من وجودها فى الدنيا تأدية هذه الأقساط فقط ، تستحق غضب التاريخ كله .

ودراسة روسيا فى عصرها الجديد هى دراسة للاقتصاديات أيضا . لأنها الأمة التى جعلت الاشتراكية نظاماً للدولة . فعلى كل من يبغى التثقيف الذاتى أن يجعل هذه الدراسة بؤرة يتفهم على ضوئها السياسة العالمية فى تطوراتها بل فى تهتكاتها المختلفة . فإن النظام الجديد فى روسيا يستنكر الاستعمار ويكافح المبادئ القيصرية واستغلال الأمم الضعيفة فى آسيا وأفريقيا ويكشف عن العوامل الخفية التى تختبىء وراء «المشروعات» لزراعة القطن فى مصر واستنباط البترول فى إيران أو غرس الكوتشوك فى جاوه الخ ...

وفى الوقت الحاضر كل ما أستطيع أن أقول فى دراسة الاقتصاديات للقارئ الذى لا يعرف غير العربية هو أن قراءة الأخبار اليومية العالمية فى الجريدة خير من قراءة أى كتاب عربى . لأن القارئ إذا تتبعها بفهم وفراسة ذهنية استطاع أن يرى خلفها العوامل الاقتصادية المحركة .

أما القارئ الذى يعرف اللغات العصرية مثل الإنجليزية أو الفرنسية فلا يحتاج هنا إلى أى إرشاد .

دراسة الفلسفة

كثيراً ما حملتنى دراستى للسيكلوجية على أن أتعمق فى درس الأمراض النفسية من أخف أنواعها كالقلق والهم إلى أخطرها كأنواع الجنون المختلفة مثل الشيزوفرنيا والمانيا .

والمتعمق فى هذه الأمراض يستطيع أن يصفها بأنها « أمراض فلسفية » فهى توصف بأنها « أمراض نفسية » من حيث إن الجسم سليم ولكن النفس معتلة . وقد يؤدى اعتلالها إلى اعتلال للجسم أو لا يؤدى .

ولكن الأساس لاعتلال النفس أن النظرة الفلسفية للحياة فى أسلوبها وغايتها سيئة لا تتفق والقوى البشرية أو لا تلائم المجتمع أو لا تشبع شهوات النفس وأمانيها .

وعلى الرغم من الجهل العام فى سواد الأمم لا يزال لكل فرد نظرة فلسفية يمارسها عن وجدان ودراية أو عن عقله الكامن الذى لا يدرى به . ولكل مجتمع اتجاهات فى الحياة وقيم معينة لبعض الممارسات دون بعض وهى تحمل الأفراد على بذل المجهود لكى يصلوا منه إلى ما ينشدونه من كرامة وعزة ووجاهة .

فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا يتجه الفرد إلى اقتناء الثروة وهو يؤمن بإنجيل النجاح ولا يبالى فى سبيله ما يجنى على نفسه من هموم تجعله يبكر فى الصباح ويتأخر فى المساء . وهذا مجهود كل أمريكى يريد أن يصل إلى القمة . والمباراة عامة تجعل اقتناء الثروة يسير بالعدو والهرولة ويغطى على أى مجهود آخر وسرعان ما تنفق الثروة بعد جمعها . فتكون مباراة فى الإنفاق كما كانت فى الجمع .

فهذا النظر للحياة هو فى صميمه نظر فلسفى إذ هو يجحد القناعة والبساطة فى العيش ويحمل على الطموح والرغبة فى البذخ . وليس فى الولايات المتحدة شاب أو فتاة إلا وهما فى هم وقلق كيف يحصلان على الثروة وكيف يفوزان فى المباراة الاقتصادية العامة . والهم والقلق هما تعب مرهق يؤدى إلى انهيار نفسى فى حالات كثيرة . يدلنا على ذلك أن أكثر من نصف الأسرة فى مستشفيات الولايات المتحدة يملأها مرضى النفوس وليس مرضى الأجسام . وليست حال بريطانيا أو ألمانيا أو هولندا بأفضل من حال أمريكا .

وإذا شئنا أن نعالج أحد هؤلاء المرضى فليس أمامنا سوى العلاج الفلسفى . وهو أن للقناعة و بساطة العيش قيمتهما فى الدنيا . وأنهما يفضلان البذخ والترف وأنهما يتيحان لنا الوقت لكى نلهو ونستمتع بالدنيا . وأن قيصر الرومان مرقس أوريليوس كان يصف السعادة بأنها رغيف مع الجبن نأكلهما فى ظل شجرة . فإذا تغير النظر الفلسفى لهذا المريض فإنه يشفى و إلا فإن روح المباراة يلازمه حتى يقتله .

أجل . يقتله . لأن مرض النفس عندئذ ينقلب مرضاً جسمياً . ذلك أن الهموم تزيد ضغط الدم فتنتفخ الشرايين . ثم تتصلب و يتحمل القلب أكثر من طاقته فى دفع الدم لهذه الشرايين المتصلبة . وعندئذ قد يفشل القلب فنموت بالسكتة أو قد ينفجر شريان فى الدماغ فنموت بالنقطة . وقبل هذ الموت نقضى سنوات فى صحة جسمية منحطة .

وهذه المبالغة فى المباراة هى مثال واحد من أمثلة النظر الفلسفى السىء . وهناك الغيرة عند النساء . بل هناك الرغبات الطفلية تبقى معنا إلى سن الشباب والكهولة وتغمر سلوكنا النفسى بل سلوكنا الجسمى . وكل هذا يدل على أننا فى حاجة إلى الصحة والسداد فى النظر الفلسفى لكى نعيش المعيشة الطيبة .

وقد أصبح فى عصرنا معنى الفلسفة يخالف معناها التقليدى المعروف فى أوربا وفى العالم القديم كله . فقد كنا نفهم من الفلسفة أنها تأمل فى الخلق والخالق . وتفسير لمعميات الكون ودرس للمذاهب القديمة والحديثة من عهد الإغريق إلى العصر الحاضر . وموازنة بين مختلف النظريات أو محاولة للتوفيق بينها بالزيادة هنا والحذف هناك . والفيلسوف فى نظرنا هو الرجل الذى انصرف عن معترك الحياة ووضع نظارته على أرنبة أنفه وغرق فى أكداس الكتب يقلب صفحاتها و يستوعب محتوياتها فإذا رفع عينيه عنها فلكى يجتر أفلاطون وأرسطو و يفكر فى ديكارت وسبينوزا .

ولكن التفكير الجديد يتجه اتجاهاً آخر و ينحو نحواً جديداً .

من ذلك أن الأستاذ ديوى زعيم حركة التجديد فى الفلسفة الحديثة يرى أن الفلسفة وسيلة من وسائل الكفاح والنجاح فى الحياة شأنها فى ذلك كشأن جميع أنواع الثقافات وأن همها ينبغى أن ينصرف إلى ترقية عيشة الإنسان والمجتمع الإنسانى كله . ولذلك يجب أن يكون هذا المجتمع أساس النقد والتجديد فى الفلسفة . ومن هنا نرى هذه الظاهرة

الجديدة وهى أن الدراسات الفلسفية قد انتقلت من مخابئها فى مكتبات العلماء المتزمتين إلى الحياة العامة . ونرى مثلا أن الحكومة الأمريكية تعين مسترما كيفر أستاذاً للفلسفة فى كلية الزراعة فى تكساس .

فلنتأمل هذا الخبر الصغير فى مبناه ، الكبير فى معناه . هذه كلية تلقن الطلبة كيف يزرعون القطن ويعنون بالطماطم ويحلبون البقر ، ولكن إلى جانب هذا يجب أن يتعلموا الفلسفة وأن يعرفوا أثرها فى حياتهم الزراعية المستقبلة ويجب أن ينيروا بصائرهم فى قيمة الحياة وأن يستعينوا بالفلسفة لكى يعينوا ويحددوا مطامعهم الفردية ومكانتهم الاجتماعية فى الأمة .

فالفلسفة لم تعد من الكماليات التى يتذوقها المتحذلقون أو المتخصصون . وإنما أخذت تتصل بالزراعة والصناعة فيجب أن يكون اتصالها وثيقا بالبيت والمصنع كما يجب على الشاب والفتاة أن يتساءل كلاهما فى بداية أى مشروع : هل هذا العمل يتفق والنظر الفلسفى الحسن أم لا يتفق ؟

وهذا يحملنا على القول بأن كل شاب فى حاجة إلى تدريب فلسفى أى يجب أن نألف الفلاسفة وأن ندرب الذهن ونربى العاطفة على معالجة مشكلاتنا بالفلسفة . وإذا فعلنا ذلك فإننا نرفض الانسياق وراء غايات تستأثر بمجهودنا ووقتنا بلا طائل غير « المركز الاجتماعى » أو نحو ذلك .

والذهن المدرب بالفلسفة هو الذى يوازن بين شراء عقار بمئة جنيه أو شراء مكتبة بهذا المبلغ . لأنه هنا يقف بين التوسع الذهنى أو الرقى الشخصى وبين التوسع العقارى أو تكبير المركز الاجتماعى . وهو يتساءل : أيهما أكبر قيمة وأبلغ غاية ؟ لأن موضوع الفلسفة هو قيمة الحياة وغايتها .

والدين فى الفلسفة أو الفلسفة فى الدين . لأن كليهما يرسم لنا الاتجاهات فى السلوك ويعين لنا القيم فى المعيشة والأخلاق . وقد ظهرت فى اللغة العربية بعض الكتب التى لا تفى ولا تشبع . ولكن ليس هناك أفضل منها . ومنها كتاب الأستاذ أحمد أمين بك عن قصة الفلسفة ومنها أيضاً سلسلة موجزة للأستاذ عبدالرحمن بدوى . وكتاب الأخلاق لأرسطوطاليس

(ترجمة أحمد لطفى السيد باشا) وكتاب الدكتور طه حسين بك المترجم عن أرسطوطاليس فى نظم الحكم ، كل هذه يمكن أن تقرأ مع الفائدة الكبيرة .

أما كتب الفلسفة القديمة فى اللغة العربية فهى غيبيات عقيمة . وهى خلاصة التفكير الإغريقى بعد إخراجه مزيفاً فى خدمة المجادلات المذهبية المسيحية .

والفلسفة بطبيعتها بطيئة التجديد . ولكن يجب أن نعرف أنها تنحط بمقدار اتجاهها نحو الغيبيات . وترقى بمقدار اتجاهها نحو البشريات . وهى تبحث القيمة فى حين يبحث العلم الماهية . أو هى بمثابة الدفة التى توجه فى حين يؤدى العلم مهمة الشراع أى القوة . وعلم بلا فلسفة هو قوة بلا شراع قد تسير بالسفينة نحو الصخرة . والفلسفة الراقية هى ديانة راقية وربما نحتاج إلى تعبير جديد يحملنا على الانتفاع بدراسة الفلسفة والدين معاً . وهو أن نقول « الفلسفة التطبيقية » و « الديانة التطبيقية » وعلى قدر استعداد الفلسفة والدين للتطبيق فى خدمة البشر تكون قيمتهما و إلا فهما غيبيات أى تفكير فى الخواء .

دراسة الدين

دراسة الدين يجب أن تكون من الاهتمامات الكبرى للمثقف لأن غاية المثقف لا يمكن أن تخرج عن أن يعيش المعيشة الذكية الطيبة . وهذه المعيشة غير مستطاعة إلا مع الدين .

ونحن ندرس الآداب والفلسفة لكى نستنبط منهما القيم التى نقيس بها شرف الحياة وغايتها وما فيها من جمال أو قبح ونعين بهما الغايات التى نسترشد بها فى معيشتنا ونجهد لتحقيقها . وهذه الغايات هى الدين .

ونحن نأخذ الدين عن أبوينا تقليداً ونعيش فى صبانا و بعض شبابنا ونحن نستند إلى الدين التقليدى كما نستند إلى معونة الأبوين . ولكن التكشف الدينى للرجل المثقف يحتاج إلى سنين عديدة ودراسات مختلفة وتغيرات نفسية متوالية تنشأ من الاختبارات الدنيوية . وحوالى سن الخمسين نجد أن ما ورثناه من عقائد ليس شيئاً فى جنب ما استنبطناه من بصيرة دينية هى ثمرة الحياة على الأرض نصف قرن أو أكثر . وقد تؤيد هذه البصيرة بعض العقائد أو لا تؤيدها . ولكن محال أن يبلغ الإنسان المثقف هذه السن وأن يكون قد عاش عيشة الجدّ الثقافى مع الفهم الأصيل ثم يجد نفسه بلا دين أى يجد نفسه بلا ضمير إنسانى . وهناك بالطبع كثيرون يعيشون حياتهم بما ورثوه من عقائد لم يبحثوها قط بالنقد والتمحيص . وهذا هو الدين العرفى الذى طلبه أحد الكتاب حين قال : « اللهم الهمنى إيمان العجائز » وهذا الإيمان قد يؤدى إلى السعادة الاجتماعية . ولكنا لا نطلب الدين لمثل هذه السعادة العرفية وإنما لكى نشعر بمسئولياتنا البشرية . ولكى نجد الحافز من هذه المسئوليات لأن نعيش الحياة الذكية الصالحة . ويجب لهذا السبب أن ندرس الدين بعناية وأن نجعل جميع المواد الثقافية فى خدمة البصيرة الدينية . والرجل المتدين الذى تكوّن دينه بعد دراسات بشرية خالية من الغيبيات هو أزكى الثمرات للتثقيف الذاتى . أجل . هو الذى يفكر بقلبه ويحس بعقله .

وقد يسأل القارئ بعد هذا : ما هو الدين الذى تقصد ؟

فأجيب بأن الدين هو خلاصة الثقافة التى حصلنا عليها إلى جنب اختباراتنا الدنيوية

فيما لا يقل عن خمسين سنة . ومن هذه الثقافة وهذه الاختبارات قد تعين لنا موقف واتجاه فى الدنيا وتكوّن لنا ضمير و بصيرة . وهذا هو الدين . وهو دين حسن إذا كنا على ذكاء أصيل قد نعمنا بوسط حسن وثقافة بشرية . وهو دين سىء إذا كنا على ذكاء ناقص قد عشنا فى وسط سىء واغتذينا بثقافة منحطة .

وليس القارىء فى حاجة إلى أن ننصح له بدراسة الكتب المقدسة التى أخذ عنها ديانته التقليدية . لأن المجتمع الذى ينتمى إليه يطالبنا بهذا الواجب . ولكنه محتاج أيضاً إلى أن يدرس الكتب المقدسة التى للأديان الأخرى العصرية والقديمة الإلهية وغير الإلهية . وعلى القارىء العربى أن يذكر أن البوذية والكونفوشيوسية وهما دينان يؤمن بهما أكثر من ألف مليون إنسان فى آسيا لا يعترفان بالله . فيجب ألا نجحد دراستهما لهذا السبب .

وليست دراسة الأديان قائمة على بحث الخلافات أو المشاغبات المذهبية فى الفرق المسيحية أو الإسلامية أو اليهودية . لأن هذه الخلافات قامت على « غيبيات » يعرف كل من حاول التغلغل فى تفاصيلها أنه كان يتغلغل فى خواء . وأن المقياس الذى نقيس به ميزات أى دين فى العالم إنما هو مقياس المجتمع الحسن الذى استطاع هذا الدين أن يلهمه و يوجهه نحو البر والشرف .

ويجب أيضا ألا نتغاضى عن سمو الفكرة الدينية فى نظرية التطور التى جعلت الأفق الدينى لكل منا يتجاوز بضعة ألوف من السنين إلى الملايين بل مئات الملايين والتى شرحت لنا المجهود الرائع الذى بذلته الطبيعة لكى يصل الإنسان إلى مقامه الحاضر . وقد أكسبتنا نظرية التطور فكرة جديدة لم تعرفها الأديان الأخرى هى احترام الحياة كائنة ما كانت للنبات أم الحيوان . لأن بيننا جميعا قرابة تطورية ولأن المجهود الذى بذلته الطبيعة لكى نصل إلى مقامنا الحاضر هو مجهود مشترك بين جميع الكائنات الحية . فنحن وهى عائلة واحدة قد حاولت الطبيعة عن سبيل كل فرد منا ومنها أن نتسلط على المادة . وكذلك يحسن أن نقرأ كتاب «الغصن الذهبى» تأليف فريزر . وهو للأسف لم يترجم إلى العربية . كما نقرأ بل ندرس مؤلفات اليوت سمث عن العقائد المصرية الأولى . فإن هذه المؤلفات تبسط لنا نشأة الأديان البدائية .

و إلى جنب الكتب المقدسة يجب أن ندرس كتب الأدب والفلسفة العظيمة كما ندرس نظريات العلم الحديث . وعلى المسلم أن يدرس الإنجيل والتوراة كما على اليهودى والمسيحى

أن يدرسا القرآن . لأن هذه الكتب الثلاثة كانت من العوامل الكبيرة فى تكوين الضمير البشرى . بل يجب أيضاً أن ندرس حتى من يتهمون بالكفر . لأن هذا الكفر قد يكون برهان الإيمان . وقد أعجبت بكلمة قالها الفريد نويس فى كتابه عن فولتير . فإن المؤلف هنا كاثوليكى يؤمن بالمسيحية ويحترم الكنيسة ولكنه مع ذلك وصف فولتير الذى حارب الكنيسة الكاثوليكية بأنه كان « مسيحياً طيباً » .

وهذا حق . لأن جهاد فولتير ومحاربته للكنيسة فى عصره كان من لباب المسيحية .

ولا يمكن أن تؤدى الدراسة مع الذكاء الأصيل إلى الكفر ويجب لهذا السبب أن تجد الآراء الجديدة ضيافة حسنة فى أذهاننا ولا بد أننا بعد الدراسة سنقول كما يقول برناردشو : « رجل بلا دين هو رجل بلا شرف » .

وهناك من يعيشون فى قبو من العقائد والتقاليد بعيدين عن الآفاق الرحبة للمعارف كما أن هناك من ينغمسون فى جبرية الغيبيات لم يعرفوا قط حرية الماديات وهواءها المنعش . ولهؤلاء جميعاً الرثاء .

ومن الحسن أن نلخص هنا بعض الاستنتاجات فى التمييز بين العلم والأدب والفلسفة والدين على الرغم مما يكون فى هذا من تكرار :

١ — العلم محايد يبحث ماهية الأشياء ولا يبحث قيمتها .

٢ — العلم يميز بين الحقيقة والوهم ولكنه لا يدلنا على الفرق بين الحق والضلال أى بين العدل والظلم .

٣ — العلم يعين الوسائل ولكنه لا يعين الغايات إذ ليست له غاية .

٤ — الأدب والفلسفة والدين هن اللاتى يعينّ الغايات .

٥ — مثال ذلك اخترع العلم الطائرة وأوضح لنا « ماهية » آلاتها ولكن الدين يعين الغاية منها ، وهل هى لقتل الناس وتدمير المدن أم لتقريب المواصلات على هذا الكوكب وزيادة الاتحاد البشرى ؟

٦ — فى العلم نجد المعرفة . وفى الأدب والدين والفلسفة نجد الحكمة .

٧ — المعرفة تنير الحكمة ولكن الحكمة هى التى تستخدم المعرفة وتوجهها لخير البشر .

دراسة الفنون

جميع الفنون هى نظر أو سلوك تتسامى فيها بما ورثنا من كفايات طبيعية . فالمشى من الطبيعة والرقص من الفن . لأننا قد تساميا بحركة المشى إلى الإيقاع الموسيقى فى الرقص .

ونحن نتحدث فى كلام مرسل ولكننا حين ننقل هذا الكلام إلى الشعر نحس جمالا هو جمال الفن .

والفن هو التعبير البشرى عن الإدراك الروحى . ولذلك فإن الفلسفة والدين يعدان من الفنون البشرية لأننا نستطيع مثلا أن ننظر إلى الكون نظراً ماديا مؤلفاً من الأرقام والكيمياء والطبيعيات . وليس هنا فن . ولكننا حين ننظر إليه نظراً فنياً نتجاوز الأرقام والكيمياء والطبيعيات إلى ما ورائها من معانى الشعر والموسيقا والإيقاع فنجد الفن والفلسفة والدين .

وفى الإنسان رغبات وشهوات وغرائز ومطامع . ونستطيع أن نتوخى الهدف المادى لهذه جميعها . وعندئذ ليس لنا فيها شىء من الفن . فنحن حين نجوع ونشتهى الطعام أو حين نحس الرغبة فى الجنس الآخر أو حين نطمع فى الامتلاك أو ننقاد لغريزة الخوف العادية — فى كل هذه الأشياء قد يجرى تصرفنا على المستوى المادى فلا نصل إلى الإدراك أو الوجدان الروحى .

ولكن الإنسان منذ أن بزغ من أسر الغابة لم يقنع بالماديات . وتاريخ الحضارة يمكن أن يكون إلى حد ما تاريخ الانتقال أو التطور من النظر المادى إلى النظر الروحى . فالمائدة المتمدنة هى متعة للنفس كما هى متعة للمعدة ونحن لا نقنع فيها بأن نشبع من الطعام بل نطمع إلى أن نشبع أيضاً من أدواتها الفنية وزهورها وأطباقها وحديث المجتمعين حولها . وكذلك ليست بيوتنا لإيوائنا من الحر والبرد بل هى أيضاً ، أو على الأقل نحن نتوخى فيها أن تكون ، متاحف حافلة بما يعجب العين والنفس .

واشتهاء الجنس الآخر إذا سار على المستوى المادى يخلو من الفن . ولكن لم يقنع الإنسان قط بهذا . فإنه ارتفع من هذا النظر المادى إلى النظر الروحى . فنشأ من الشهوة

حب . وحفل تاريخ الإنسان بأقاصيص الحب التى نقرأها وننشدها أشعاراً كأنها تراتيل الدين.

وفى عصرنا رأينا القمرة الفتوغرافية تنقل الصور بأسلوب مادى ونظر مادى . فلا نجد وراء الصورة معنى روحياً . وهذا هو الفرق بين الرسم الذى يؤديه الرسام ويرى من خلال ما يرسمه معانى روحية و بين الصورة الفتوغرافية الصماء .

والحضارة العالية هى مجموعة من الفنون التى تربى الذوق وتمتع بأحساس الطرب فى رؤية أدواتها واستعمالها . و إذا انحطت الحضارة انحطت فنونها إلى صناعات لكسب العيش فقط . وعندئذ تنخفض إلى مستوى الضرورة فتصير الحياة للبقاء بالحصول على الضرورات كما هى مثلا حياة فلاحنا الآن .

والفنون تراث المدينة ولم تكن قط تراث الريف أو البداوة . وتراثنا الثقافى من الفنون صغير بل ضئيل . فإن العرب كانوا بدواً جهلوا البناء والنحت والرسم وصناعات المدن . ولم نرث منهم سوى الشعر وهو مع ذلك شعر البداوة الذى تؤثر فيه الشطرة أو البيت على القصيدة وتؤثر القصيدة على العلياءة .

وما عندنا فى مصر من اتجاهات فنية إنما يعزى كله إلى العصر الحديث و إلى تجديد الفنيين المصريين سواء فى الرسم أو العمارة أو النحت . وليس عندنا أى تجديد فى الغناء الذى لا يزال تنهدات منقحة . وقد نجحنا فى الرسم العمارة والنحت بعض الشىء لأننا عمدنا إلى الأوربيين فتعلمنا هذه الفنون منهم ولم ندّع فى سخف وتنطع أن لنا تراثا فيها . ولكننا لم ننجح فى الغناء والموسيقى لأن دعوانا فيهما دعوى متورمة منتفخة ، ولو تواضعنا وتعلمنا من الأوربيين أصول هذين الفنين لكانت لنا فيهما نهضة .

وكل هذا الذى ذكرنا يبين للقارئ أن دراسة الفنون لا تعنى شيئا آخر سوى دراسة الكتب الأوربية ورؤية المدن والمتاحف الأوربية . ولما كانت غاية الفن هى فى النهاية أن نعيش الحياة الفنية وأن نجد الطرب الروحى الذى نحس من الجمال فإن التربية الفنية تعنى فى النهاية التدريب المستمر للتسامى بشهواتنا ورغباتنا وتعوّد النظر الدينى والفلسفى لشئون هذه الدنيا حتى تسير حياتنا وكأنها القصيدة الرائعة وليست النثر المبتذل .

ولا أستطيع أن أنصح للقارئ بأن يقرأ شيئاً عن الفنون فى العربية . وقد يكون فى

كتابى « أشهر الصور » بعض الفائدة ولـكنه فتات ضئيل من المائدة الأوربية . وعلى الراغب فى الدراسة أن يوالى زيارة المتاحف والمعارض ويتأمل ويدرس وهـذا إلى الآن قصارى ما يقال .

وغاية الفن هى بعد كل شىء أن نعيش الحياة الفنية وأن يكون لنا مأرب فنى فى معايشنا ومعارفنا وسلوكنا وتصرفنا . وأن نرتفع من عيشة الضرورة البيولوجية إلى الاستمتاع المدنى .

ليكن لنا كفاح ثقافى

يجب على كل مثقف أن يكون له كفاح لأن الدراسة تحتاج إلى حوافز من العواطف الظاهرة أو المختفية تدفع إلى المثابرة والجهد . ولكن هذا الحافز يضعف أو يقوى باختلاف الدراسة والشخص . فنحن نقرأ الجريدة فى الصباح لأن عاطفة الاستطلاع تدفعنا إلى ذلك . ونحن ندرس الكتاب لكى نتهيأ به للوصول إلى الهدف الذى قد يكون التكمل فى الفن الذى نمارس أو الرقى الذهنى أو نحو ذلك . فالطبيب يقرأ كتابا فى شرح أحد الأمراض لا أقرأه أنا لأنه يجد الحافز الذى لا أجد . وأنا أقرأ كتابا فى السيكلوجية لا يرضى غيرى بقراءته ولو أُجر عليه .

فلكل منا حافزه الذى يبعثه على الدرس . وقد يزداد هذا الحافز قوة حتى يحمل القارئ أو الدارس على الجهاد . وعندئذ يفتح هذا الجهاد أبوابا للدرس مدى الحياة . فالشاب المصرى الذى عاش فيما بين ١٩١٨ و١٩٤٣ وعاين الحركة الوطنية واشتبك فيها وأصبح مجاهداً للوطن يدعو للاستقلال والحرية قد حمله هذا الجهاد على دراسة لا تنقطع بالحديث وقراءة الجريدة ودراسة الكتاب لكل ما يتصل بالاستقلال والحرية والاستبداد والدستور والقيصريات واستغلال الشعوب الصغيرة وخيانات الملوك والأمراء والوزراء لأوطانهم رغبة فى الانتفاع بسلطان الدول المتسلطة ونحو ذلك . وهو يجد نفسه مشتاقا لدرس تاريخ الولايات المتحدة وكيف استقلت . وهو يدرس مبادىء الثورة الفرنسية بل جميع الثورات وهو يعطف على الحركة الهندية التى يتزعمها غاندى . وهو أيضاً مضطر إلى التغلغل فى الاقتصاديات لكى يقف على ألاعيب الماليين الذين جروا على وطننا الخراب الاقتصادى والسياسى والاجتماعى وهو يقرأ الجريدة بعناية . واشتباكه فى الحركة الوطنية يرشده إلى الكتب التى يحتاج إلى قراءتها .

فهنا مثال الجهاد السياسى يحمل على دراسات مختلفة تشع من بؤرة مفردة هى إرادة الاستقلال . وألوان الجهاد مختلفة متنوعة . فهنا مثلا سيدة تسعى لمنع الخمور . وهنا سيدة أخرى تسعى للمساواة بين الجنسين فى الحقوق المدنية والاقتصادية . وهنا شاب يدعو إلى

الاشتراكية . وآخر يجاهد من أجل الفلاح . فكل هؤلاء يجدون الحافز الذى يبعثهم على الدرس والاستزادة من الثقافة التى تتصل بموضوعاتهم . وليس هناك موضوع مستقل . فإن الدعوة إلى المساواة بين الجنسين تتصل بدراسات اجتماعية وتاريخية وفسيولوجية بل دينية . ومن ينصب نفسه لهذه الدعوة محتاج إلى المثابرة والجهد فى دراسة عميقة . وهو بهذه الدراسة يستنير وينتفع من هذه الناحية بدعوته كما أن دعوته تنتفع به .

وانظر مثلا إلى شاب قد أحس أنه يجب أن يجاهد لتحقيق المجتمع الاشتراكى . فإن جهاده سيحفزه على الدرس الذى لا ينقطع طيلة حياته . وتاريخ البشر يعد عندئذ بعض موضوعاته . واقتصادياته الصناعة والزراعة وكذلك الأخلاق والأديان بل كذلك الاستعمار والحروب وقيصرية المدفع والجنيه ، كل هذا يعد من ميادينه الدراسية . وهو يرقى بهذه الدراسات وينظر النظرة العلمية الفلسفية للمجتمع . وفى عصرنا الحاضر أجد الفرق عظيما جداً بين شاب يجهل الاشتراكية وآخر يدرسها . لأن الأول تجرى الحوادث أمامه وهى لا تعنى المعنى ولا تغزو المغزى فى حين يجد الثانى معناها ومغزاها واضحين . كما أن الأول يقرأ وهو راكد متثائب أما الثانى فيقظ متنبه . وقل أن تجد للأول مكتبة بل هو قد يهمل شراء الجريدة أما الثانى فيعرف الشأن العظيم لها فى ترقية ذهنه . الأول ينظر إلى الحوادث متفرجا والثانى يبصر بحركة التاريخ .

وأستطيع أن أقول إن كل ثقافة حسنة تؤدى إلى جهاد من نوع ما . والثقافة السيئة هى وحدها التى لا تؤدى إلى جهاد . لأن الثقافة السديدة المتصلة بالمجتمع تسبق هذا المجتمع بمسافة قصيرة أو طويلة . وهى لهذا السبب تدعو إلى التغيير لأنها ترسم لنا مُثليات جديدة نشتاق إلى تحقيقها . ومن هنا ، أى من الرغبة فى التغيير ، نحس الجهاد .

وقيمة أخرى للجهاد فى الثقافة أنه يكبّر شخصيتنا ويجعلنا نشعر بأن لنا قيمة تاريخية أى لنا رسالة نؤديها بالدعوة إلى إصلاح معين . وهو يكسبنا الفلسفة التوجيهية التى يحتاج إليها كل شاب أو فتاة متمدنين فى عصرنا . ونحن بهذا الجهاد نسير وقد رفعنا رءوسنا عالية وشخصنا إلى القمم .

ولست أستطيع أن أعين للقارئ الجهاد الذى يجب أن يختار . لأن لكل إنسان بيئته

وظروفه واستعداده . فلعل القارئ المصرى يطلب إصلاح اللغة العربية أو تعميم الكيمياء الصناعية أو نشر المبادئ الاشتراكية أو مكافحة الإسراف فى الطلاق أو الزواج أو تحديد النسل أو غير ذلك . وهو وحده القادر على أن يقول أى الأنواع تحتاج إليه بيئته ويقوى هو على الاضطلاع به . إنما الذى أقرر هنا هو أن الجهاد حافز عظيم للدراسة . وقد وجدت هذا باختباراتى الشخصية . فإنى أذكر أنى فى سنة ١٩٣٠ أنشأت جمعية «المصرى للمصرى» وكانت غايتها أن تدعو المصريين إلى أن يشتروا السلعة التى يصنعها أو على الأقل يبيعها المصرى دون الأجنبى . وذلك لكى نرفع المستوى الاقتصادى بين المصريين ونشجع المصانع المصرية على الإنتاج اعتقاداً بأن أساس مشكلاتنا هو الفقر وبأن الأمة التى لا تمارس الصناعات العصرية هى أمة غير متمدنة . وقد كنت أعجب العجب العظيم حين كنت أجد الشاب لم تتجاوز سنه العشرين ومع ذلك يحضر إلىّ ومعه مستندات حافلة بالإحصاءات عن وارداتنا من الأطعمة والأقمشة التى كان يمكن أن نصنعها فى بلادنا . فهذا الجهاد من أجل الصناعة المصرية عند هذا الشاب قد استحال إلى حافز لدراسة الاقتصاديات المصرية بجميع أنواعها .

وعند ما أراجع ذاكرتى أجد أن معظم الموضوعات — بل ربما كلها — التى شغلتنى دراستها إنما كنت مكافحا فيها . فكانت الدراسة بهذه المثابة عضوية تتصل بشهواتى ومشكلاتى النفسية . وأحتاج إلى تحليل عميق لكى أعرف البؤرة التى تشععت منها اهتماماتى الثقافية . وظنى أنها الوطنية ومكافحة الإمبراطورية البريطانية . والآن يطفر إلى ذهنى حادثان كان لهما عندى أكبر الوقع النفسى . فقد صدمنى حادث دنشواى وأنا فى الثامنة عشر وبقيت أسبوعا وأنا كالصائم لا أستمرئ الطعام . وحادث آخر كان له وقع فى نفسى كله مرارة وأسى . ذلك أنى كنت فى باريس وأنا فى التاسعة عشر أو العشرين وقد قعدت إلى بعض الطلبة الفرنسيين فى بهجة وأنسة تزيدها الكأس نشوة حلوة . وإذا بالحديث يجرنا إلى السياسة ثم استحال الحديث إلى مناقشة حادة . فإذا بأحد الطلبة يقول لى بصوت عال فى لهجة الزجر والاحتقار :

« لا شأن لك بهذه المناقشة . أنتم أمة مهانة والإنجليز أسيادكم » وكان هذا القول حقا . وتولانى غضب وحزن لم يخفف منهما توبيخ الحاضرين لهذا الشاتم . بل لقد كان عطفهم علىّ أكثر إيلاما لى من شتمه . وقد بكيت كثيراً تلك الليلة . وذهبت إلى الطبيب جملة مرات

أشكو إليه ألماً فى الأمعاء و إسهالا دمويا مخاطيا لم أعرف أنا ولم يعرف هو سببهما الذى يتضح لى الآن . وظنى أن هذا الطبيب لم يستطع وقتئذ أن يتخيل شابا فى سنى يمكنه أن يتحمل هما كبيراً يفتت أمعاءه إلى هذا الحد .

وعند ما أنظر إلى جميع مؤلفاتى أرى أن جميعها أو معظمها يتشعع من بؤرة الوطنيـة ومكافحة الإمبراطورية البريطانية . بل أستطيع أن أقول إنه حتى دراسة البيولوجية وما تفرع منها لم تـكن لشهوة العلم وحده كما يتضح للقارئ من النية المضمرة فى كتابى « التطور » وهى الإصلاح بقشع الخرافات العقيدية حتى تصير مصر أمة عصرية .

ولا أقول إن هذا التعليل مقنع . ولـكن هذين الحادثين يومآن على الأقل إلى بعض البواعث الـكفاحية لثقافتى . وعلى كل حال أقول إنى لم أعش قط فى البرج العاجى . وكانت كل دراساتى كفاحية . ووجدت فى هذا الـكفاح خصوبة ثقافية وتوسعاً ذهنيا لما أصل إلى حدوده . والعبرة أننا يجب أن نمارس الثقافة لا متفرجين أو محايدين بل مكافحين مشتركين .

كتب رمزية وكتب بذرية

هناك مؤلفون كثيرون قد كتبوا فى الأدب والفلسفة والعلوم كالطب والكيمياء والفلك وقد عاشوا فى عصور مختلفة منذ ألفى أو ثلاثة آلاف سنة . ونحن حين نقرأ لهم لا نقصد إلى الانتفاع بمحتويات مؤلفاتهم وإنما نرمى إلى أن نفهم العصور التى عاشوا فيها عن طريقهم . فهم بهذا رموز عصورهم أى أن قيمتهم رمزية .

فكتاب الحيوان للدميرى أو تذكرة الأنطاكى الطبية أو طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة — هذه الكتب الثلاثة لا ننتفع بفوائدها الطبية أو البيولوجية لأنها إما مخطأه وإما غامضة . وهى حافلة بالخرافات . ولكنها تكشف لنا عن صفحات تاريخية فنتعرف عن طريقها إلى الأحوال الثقافية — بل أحيانا الاجتماعية — التى كان يعيش فيها هؤلاء المؤلفون .

ولهذا السبب يجب ألا نرفض قراءة كتاب لأنه يحوى الخرافات أو لأن المعارف التى يشرحها تخالف الصحة ما دامت لهذا الكتاب قيمة رمزية عن العصر أو الأمة التى ظهر فيها . فإن قوانين حمورابى البابلى وكذلك دعوات أخناتون المصرى تدلنا على الحال الاجتماعية فى مصر وبابل قبل ألف سنة قبل الميلاد . ورحلة ابن بطوطة من أحفل الكتب بالخرافات ولكن قل أن يجد القارئ كتابا منيرا عن الأمم التى جوَّل فيها المؤلف فى القرن الثالث عشر مثل هذا الكتاب .

فإننا نطل من فصوله على الأحوال الاجتماعية فى أقطار مختلفة من المغرب الأقصى إلى الصين . وكذلك الحال فى كتاب البغدادى عن مصر . بل كذلك يجب أن نقرأ الكتب القديمة فى التاريخ مثل هيرودوتس و بلوتارك والطبرى .

والقرون الوسطى سواء عند العرب أو الأوربيين حافلة بالمؤلفين الذين ليست لهم قيمة كبيرة من حيث الموضوع الذى بحثوا . ولكنهم فى اختيارهم للموضوع وأيضاً فى أسلوبهم فى البحث وحدود المعارف التى وصلوا إليها — كل هذا له قيمة رمزية للعصر الذى عاشوا فيه . فنحن نعرف الاهتمامات الثقافية التى شاعت بين المثقفين فى القرن الثالث أو الرابع للميلاد .

ونعرف كيف مارس العرب الطب مع أنهم كانوا يحرمون تشريح الجثة البشرية . ونعرف كيف خلطت الأساطير بالحقائق عن النبات والحيوان إلى عصر قريب .

ولا يمكن القارئ أن يكون مثقفاً وأن يعرف قيمة العصر الحاضر ونزعاته العلمية الانفجارية إلا إذا عرف الحضيض الذى هوى إليه الذهن البشرى فى المجادلات الدينية والأبحاث الغيبية فى القرون المظلمة . وكذلك مجموعة الأساطير عن الكيمياء والطبيعيات ونشأة الإنسان وغير ذلك .

***

وهناك نوع آخر من الكتب نسميها الكتب البذرية . نعنى بها تلك الكتب التى تنزل من نفوسنا منزلة البذرة فى التربة الخصبة . بل هى أكثر من البذرة فى التربة . لأنها زيادة على نموها لها قوة الخميرة إذ تبعث النمو فى غيرها مما كنا نظن أنه بعيد ليست له علاقة بما ندرس .

مثال ذلك كتاب داروين « أصل الأنواع » فى نظرية التطور . فإن القارئ لهذا الكتاب لا يكاد يجد فيه سوى البحث بل البحث الساذج فى تربية الناس للحيوان وعلاقة الحيوان بالبيئة الطبيعية التى يعيش فيها . ثم استنتاج واضح بأن الحيوانات جميعها من أصل واحد أو من أصول قليلة جدا . ولكن على الرغم من هذه السذاجة نستطيع أن نقول إنه لم يؤلف فى تاريخ البشر كتاب قد غير الاتجاه الثقافى مثله . فإن كلا من المذهبين الفاشية والشيوعية تأخذان منه . وقد تأثرت به جميع العلوم . فأصبحت فكرة التطور عامة . وانتقل التاريخ من بضعة آلاف من السنين إلى ألف مليون سنة . وصرنا بهذا الاتجاه نبحث عن الأصول « البشرية » للأخلاق والأديان والمجتمع . بل صرنا نبحث مستقبل البشر فى تدبر دون أن نخبط . لأن الماضى قد وضح أمامنا فاستضاء لنا المستقبل . بل زادتنا هذه النظرية إحساساً دينيا لارتباطنا بالكون كما صرنا نحس قرابة تطورية بالحيوان والنبات زيادة على ما نجد من سبب بيولوجى للإخاء البشرى . وقد بدأت هذه النظرية رأيا ثم صارت عقيدة ومذهبا . أما الآن فهى منطق المفكرين .

ومن الكتب البذرية أيضاً مؤلفات جان جاك روسو التى تتلخص فى أن الطبيعة البشرية حسنة وأن ما فينا من سوء ، إنما يرجع إلى مظالم الملوك والحكومات وإلى عادات اجتماعية . وقد أحدثت هذه الفكرة الساذجة خمائر لا تزال إلى وقتنا هذا تعمل وتحرك

المجتمعات . ويمكن أن نعزو الانقلاب الروسى إلى هذه النظرية إذا عدنا إلى جودوين واوين وبرودون ودعاة الاشتراكية الطوبوية الأولى قبل ظهور ماركس الذى دعا إلى الاشتراكية العلمية . بل إن فى عصرنا من مظاهر النشاط الاجتماعى مانستطيع أن نرده إلى جان جاك روسو . فإن الاستحمام فى البحر والتجوال فى الريف وحركة الرواد والاعتماد على المعالجة الطبيعية بل حركة العرى نفسها ، كل هذا وأكثر منه ، يعزى إلى فكرة روسو فى أن الطبيعة حسنة والعادات الاجتماعية سيئة .

ومن الكتب البذرية أيضاً مؤلفات فرويد الذى كشف عن العقل الكامن وأوضح أن نشاطنا الذهنى يعود إلى محركات خفية من الشهوات والرغبات . فإن السيكلوجية الحديثة على الرغم من كثير من متناقضاتها وانفلاتها من فرويد تعود إلى هذا الكشف .

ولا أذكر كتاب « رأس المال » لكارل ماركس . فإنه الخميرة التى تحرك المجتمعات الأوربية فى رفق التطور وعنف الحروب . ولما نصل إلى نهاية الاختمار . ولكن ثق أيها القارئ أن الرجل الذى يجهل هذا الكتاب هو رجل غير متعلم . أى أنه يجهل حتى فهم الجريدة اليومية التى تروى له الأخبار . وقد دعا كارل ماركس إلى الاشتراكية وقد يكره القارئ هذا المذهب ولكن حتى مع هذه الكراهة لا يمكنه أن يستغنى عن التحليل الماركسى أو عن نظرية التفسير الاقتصادى للتاريخ . وقد وصلنا فى مصر إلى أن نعرف أن المرض والجهل والفقر ثالوث مدنس يحطم كياننا لأننا ندرس ماركس . وعرفنا أن عرقلة الصناعات فى مصر وعرقبتها من القيصريين الإنجليز تعود إلى التطور الصناعى البريطانى فى التفسير الماركسى . والحرب القائمة هذه الأيام (١٩٤٣) لا يمكن أن نفهمها بدون هذا التفسير .

* * *

وخلاصة هذا الفصل أننا يجب أن نعنى بالكتاب إذا كانت له قيمة رمزية للعصر أو البيئة التى ظهر فيها حتى ولو لم يكن للمؤلف براعة أو عبقرية . لأن هذا الكتاب مع ما يحتويه من خرافات أو تفاهات يكشف لنا عن الجو الذى وضعه فيه المؤلف .

وأهم من هذه الكتب الرمزية تلك الكتب البذرية التى بعثت الخمائر فى النشاط الثقافى العام . وقد ذكرنا أربعة من المؤلفين لهذه الكتب وهم داروين وروسو وفرويد وماركس . والذهن المثقف الذى ينشد النظام والنظافة والوضوح فى فهم المشكلات البشرية العصرية يحتاج إلى دراسة هؤلاء الأربعة وأن يختمر بخمائرهم .

بذور ثقافتى

من حق القارئ أن يسأل ما هى بذور ثقافتى التى أرعاها بالنمو وأسترشد بها فى مغزى الحياة . بل لعله يرى أن مثل هـذا الـكتاب الذى يقرأ يجب أن يكون مؤلفه مغرما بالثقافة ينفعل ويجدد نفسه بها فى تطور لا ينقطع .

ولـكن الإجابة على هـذا السؤال تحتاج إلى كتاب مستقل تسرد فيه ظروف البيئة العائلية أيام الطفولة ثم التعليم والتربية فى الصبا والشباب إلى التكون والنضج بالتفاعل المستمر بين الشخصية وظروف الثلاثين أو الأربعين من السنين الأخيرة . وهذا ما لا يستوعبه فصل موجز . وهذه دراسة موضوعية شاقة .

على أن المؤلف يستطيع مع ذلك أن يشير إلى القليل من أعلام الطريق البارزة فى الحياة الثقافية لعل القارئ يجد فيها بعض الفائدة فى الاسترشاد .

وأول ما أقول وأنبه عنه أنى لا أكاد أجد شيئاً من ثقافتى يعود الفضل فيه إلى المدارس التى تعلمت فيها . فقد تعلمت فى هذه المدارس مواد وأخذت معارف لم تكن كبيرة القيمة . ولـكنى لم أتعلم فيها سلوكا ولم أتخذ منها أسلوبا لتربيتى . وقد نسيت معظم ماتعلمته فى المدرسة من قواعد فى النحو وأسماء فى الجغرافيا والتاريخ وعمليات فى الجبر والهندسة الخ . نسيت كل هذا أو معظمه عن ظهر قلب متعمداً راجياً النسيان حتى أخلى ذهنى لما يستحق أن يدرس ويعرف من شئون هـذا الـكوكب .

وكثير ممن يعرفوننى يعجبون لسعة ثقافتى . ولهم الحق فى هـذا . فإنى كثيراً ما أجدنى بالمقارنة مع غيرى قادراً على أن أناقش الأديب والطبيب والسيكلوجى والجيولوجى والمؤرخ والدينى والمادى وغير هؤلاء على قدم المساواة ، ليس فى كل ما يعلمون ، بل فى كثير منه مما له مغزى فى ثقافتنا . وهذه السعة فى الثقافة تتيح لى بل تحملنى على النظر التكوينى التأليفى البنائى للشئون العالمية البشرية بدلاً من النزوع إلى التحليل والنقض والهدم . ولـكنى مع ذلك أذكر أنى فى حمى الثقافة التى أصابتنى حوالى الثامنة عشرة من عمرى كنت أنزع إلى التحليل والنقد بل النقض كما يرى القارئ مثلا فى أول مقال نشر لى سنة ١٩٠٩ فى مجلة المقتطف وعنوانه

« نيتشه وابن الإنسان » وليس أمعن فى الهدم من افتتاح الحياة العلمية بنيتشه كما كان هذا المؤلف رمزاً لحياتى الكفاحية .

وقد كان من المصادفات الحسنة أن أعرف المقتطف فى سن مبكرة واشترك فيه وآخذ عنه ذلك الأسلوب الاقتصادى البعيد عن الثرثرة اللفظية كما آخذ أيضاً عنه تلك النزعة العلمية . وما زلت إلى الآن علمى المزاج تلغرافى الأسلوب . حتى أنى لأوثر أن أقرأ كتاباً عن الغدد الصم أو عن جيولوجية الفيوم على قصة روسية من الطراز العالى . ولست أعنى أنى أهمل القصة بل أرجئ قراءتها إلى ما بعد الكتاب العلمى . وقد اصطنعت أسلوباً كتابياً يقارب الأسلوب العلمى أحاسب نفسى فيه على الكلمة الزائدة كما لو أخطأت فى نصب الفاعل أو رفع المفعول .

ثم أتاح لى الحظ أن أعيش فى باريس ولندن سنوات استطعت فيهما أن أجد التربية والتوجيه والفلسفة . فإن الجرائد اليومية والمجلات الشهرية والأسبوعية فى كلتا العاصمتين — وخاصة فى لندن — كانت تنظر النظر العالمى للشئون السياسية والاقتصادية حين كانت جرائد مصر تنظر النظر القروى . وكان كفاحنا للقيصرية البريطانية فى مصر يجعل التفكير فى الرقى الاجتماعى أو فى أى رقى آخر بعيد عن أذهاننا لأن كل همنا واهتمامنا كان الاستقلال . وكنا على حق فى هذا . ولكن هذا الكفاح كان يحول دون الرؤيا العالمية والتوسع الثقافى لقارئ الجريدة المصرية .

فكانت الجريدة والمجلة فى باريس ولندن بذوراً لثقافتى . فقد وجدتنى أدرس . أهتم بالمزاحمة التجارية بين بريطانيا وألمانيا وأدرك ما وراءها من عوامل . كما صرت أقرأ عن الصين والهند وتركيا ببصيرة تسبر الحاضر وترصد المستقبل . وعرفت كارل ماركس فصرت أجد المغزى الذى لا يجده غيرى ممن يجهلون الاشتراكية فى الأحداث العالمية الكبرى .

ومن هنا يجب أن نكبر من شأن التعرف إلى لغة أوربية حية لكى نجعلها وسيلة الثقافة العصرية لأن لغتنا فى طورها الحاضر لا تكفى لتخريج الرجل المثقف ، الذى يمتاز بالعقل العام .

ولست أعنى أنى أهملت تراثنا العربى العظيم إذ لا يكاد يوجد كتاب عربى قديم لم أقتنه الاقتناء الذهنى . ولكنى أشك فى الاقتناء النفسى . ومعظم الذين يدرسون الآداب العربية من الكتاب فى مصر يقصدون إلى اكتساب الأسلوب القديم والتأنق اللفظى .

وهذا آخر ما عنيت أنا به لأن نزعتى ليست تليدية تقليدية . وقد كان غرضى الأول فى دراسة الآداب العربية الاستنارة عن حياة العرب ولذلك عنيت مثلا بقراءة طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وتاريخ الطبرى المطول وتراجم ابن خلكان وياقوت وكتب الرحلات لابن بطوطة وغيره . ومع إعجابى العظيم بالجاحظ والمعرى ، من حيث النزعة الموسوعية فى الأول والتفكير الحر فى الثانى ، فإنى أتوق الأسلوب الجاحظى كما أستهجن زهد المعرى .

وفى كنوز الآداب العربية وخاصة فى الشعر جواهر لا تزال تتلألأ كلما كشفنا عنها وأنعمنا التأمل فى معانيها . ولكن الآداب العربية فى مجموعها هى آداب القرون الوسطى . ويجب لهذا السبب ألا نطلب منها تكوين الشخصية الأدبية فى العصر الحاضر . ولذلك فإن عبرتها هى قبل كل شىء تاريخية . والأديب الذى يقتصر عليها يعيش فى عزلة ثقافية بعيداً عن التيارات العالمية . بل يعيش فى غربة أدبية بالمقارنة إلى الذين تزوجوا الآداب الأوربية .

أما المؤلفون الأوربيون الذين كانوا بذوراً حية فى تكوين شخصيتى وإنماء ثقافتى فكثيرون . وذكر أسمائهم فضلا عن تبيان ميزاتهم يشغل الكثير من هذه الصفحات . ولكنى أقول إنى التفت التفاتا خاصا إلى الإغريق القدماء وكسبت منهم كثيراً من الخصائص الذهنية وخاصة فى حرية الضمير ونزاهة الفكر . كما أنى عنيت بدراسة الأدب الروسى فى سن مبكرة فارتفعت به إلى مستوى عال من التميز الفنى حال دون ذلك الشغف الذى نجده فى الشبان يغرمون بالقصص البوليسية أو بتلك القصص والمجلات التى تتحرش بالغريزة الجنسية . وإنه لحظ حسن حقاً أن يعرف الإنسان دستوفسكى أو تولستوى قبل سن العشرين ويحبهما .

ومنذ سنة ١٩٠٨ إلى الآن (١٩٤٣) وأنا أقرأ هـ . ج . ولز وقد وجدت فيه التوجيه العالمى والإرشاد العلمى . وكذلك وجدت فى برنارد شو . ولا أظن أن هناك كتابا كتبه أحدهما لم أقرأه .

ولكن مزاجى النفسى يعود فى أكثره إلى داروين ونظرية التطور فإن هذه النظرية هى منطق فى ثقافتى وأسلوب فى دراستى ودين فى حياتى . وقد كانت بذرية من حيث أنها فتحت لى أبوابا فى دراسات أخرى كالسيكلوجية والاجتماع والجيولوجية والتاريخ والسياسة والاقتصاديات والأدب وغيرها . لأن نظرية التطور أكسبتنى أساليب جديدة واتجاهاً

جديداً فى دراستى . وأنا لهذا السبب أمتاز من كثير من الكتاب بأنى أنظر النظر التطورى للغة والأدب . ومن يجهل نظرية التطور يعتقد الركود صفة عامة فى الحضارة والثقافة والطبيعة . وهو لذلك قد يكره التغير فى اللغة والأدب ويخشاه ويبرر هذه الكراهة بالولاء للتقاليد مهما كانت آسنة متعفنة .

وهذه النظرية هى التى حملتنى على أن أتوقى الغيبيات فأغنتنى عن إضاعة الوقت والجهد فيما لا طائل وراءه من أبحاث مظلمة كما صرت أحسن الفهم والولاء لهذا الكوكب بهذا التوقى .

ولو شئت أن أذكر المؤلفين العشرة الذين أوثرهم على غيرهم لأنى وجدت لهم أكبر نصيب فى تربيتى لقلت إنهم : أفلاطون ودستوفسكى ونيتشه وجيته وروسو وداروين وشو وولز وماركس وفرويد .

أما أفلاطون فلأنى تعلمت منه النزاهة فى التفكير والجرأة على الترسيم الاجتماعى كما نجدهما فى كتابه الجمهورية .

وأما دستوفسكى فلأنه علمنى التميز الفنى وحملنى على أن أفكر بقلبى وأحس بذهنى . وهذا واضح فى قصته العالية « الأخوة كرامازوف » وسائر مؤلفاته التى تجعل قارئها إنسانياً .

وأما نيتشه فلأنه علمنى شيئاً كثيراً عن الأخلاق من حيث تاريخها وقيمتها وبشريتها .

وأما جيته فهو الشخصية المثلى التى أذكرها كلما ذكرت الرقى الشخصى والتوسع الذهنى .

وأما روسو زعيم الحركة الرومانتية فى أوربا فقد تأثرت به لأنى لا أستطيع أن أفهم الثورة الفرنسية الكبرى ، وتطور الآداب والانقلاب الروسى ، بدونه . ودعوته إلى العودة إلى الطبيعة هى البذرة لعدد كبير من الحركات الاجتماعية والأدبية ، وأما داروين فحسبى ذكر اسمه .

وأما شو فلأنى انتفعت بذهنه الصافى فى التعليق مدى خمسين سنة على الحوادث السياسية والاجتماعية . فهو الصحفى الذى يدرس شئون هذا الكوكب بروح الاحترام الدينى .

وأما ولز فقد وجهنى الوجهة العالمية وجعل الثقافة عندى عطشاً لا يطفأ . وكثير من تفكيرى يجرى بلا وجدان على الأساليب الولزية .

وأما ماركس فحسبى أن أقول إنه لولاه لكنت أعد نفسى أميا لا أفهم مجرد قراءة الجريدة اليومية .

أما فرويد فقد فتح لنا أبواباً كانت مقفلة من الدراسة فى السيكلوجية جعلتنى طالباً أبديا لهذا العلم و بسطت لى عوالم جديدة .

* * *

لقد ذكرت هؤلاء العشرة لكى أتوخى الإيجاز . ولو أطلت لجعلتهم مئة أو أكثر . ولكل قارئ ظروفه ومزاجه . ونصف القرن الماضى يختلف عن نصف القرن القادم . فلا بد أن يتغير البرنامج الثقافى للقارئ . وهو وحده القادر على الاختيار والإيثار للمؤلفين البذريين .

على أن القارئ يجد من هؤلاء العشرة أنى طلبت الثقافة لشىء واحد هو ترقية شخصيتى عن سبيل دراسة العصر الحاضر .

وقد كان نابليون يقول فى ستراتيجية الحرب أن الجيش المحارب يجب أن يمتاز امتيازاً كبيراً فى سلاح معين قد يكون سلاح البطريات أو المشاة أو الفرسان ولا يبالى بعد ذلك أن يكون عاديا فى سائر الأسلحة . وهذا هو أيضاً ما يجب على المثقف . فإنه يجب أن يمتاز فى مادة معينة ولا يبالى بعد ذلك أن يكون عاديا فى سائر المواد . وهو فى تعمقه فى إحدى الدراسات المتوهجة ، تخرج منها عشرات الأشعة إلى موضوعات أخرى ، يجد أن الأبواب تتفتح أمامه لاهتمامات جديدة .

وقد كانت البيولوجية أى علم الحياة بؤرة ثقافتى تكونت عندى فى حمى الشباب حوالى الثامنة عشرة من العمر حين يستحيل القلق الجنسى بكيمياء النفس إلى قلق ثقافى . فكانت الحيرة الدينية بشأن المذهب الدارويني . ثم حملتنى دراسة هذا المذهب إلى دراسات عديدة ما زلت إلى الآن بعد ما يقرب من أربعين سنة فى شبكتها . وحسب القارئ أن يعرف عن تعمقى فى هذا المذهب أنى ألفت كتاب « نظرية التطور وأصل الإنسان » مقالات متوالية أولا فى جريدة البلاغ دون أن أحتاج إلى الرجوع إلى كتاب . فإنه كله من الذاكرة .

ثم حملتنى دراسة البيولوجية إلى دراسة السيكلوجية والاجتماع والدين والتاريخ والجيولوجية .

واحترفت الصحافة — قبل أن تنحدر إلى القيل والقال والتسلية — فنموت بها وصار التفكير فى الشئون الاجتماعية والسياسية — عالمية ووطنية — حرفتى التى تحملنى على الدوام على التكمل والاستزادة .

التعمق فى الدراسة

العبرة فى الحياة — كما فى الحرب — بالخطة التى تتبع . وكذلك الشأن فى الثقافة . فإن فى مكتبة المتحف البريطانى أكثر من أربعة ملايين مجلد ليس من المعقول أن أحداً يطمع فى قراءتها أو قراءة نصفها أو عشرها لأن العمر البشرى فى حدوده الحاضرة يفنى قبل أن ننتهى من قراءتها . وبدهى أننا لسنا فى حاجة إلى قراءة هذه الكتب فإن كثيراً منها بل أكثر ما فيها تراب وغبار .

فيجب لذلك أن نتبع خطة حتى تنتظم جهودنا فى التثقيف الذاتى وحتى نأخذ بالأهم قبل المهم فضلا عن ترك السخيف والعقيم . ويجب لذلك ألا نتسكع فنقرأ جزافاً . فليس فى الدنيا أثمن فى الحياة البشرية سوى الذهن البشرى . ولذلك يجب أن تكون أكبر عنايتنا فى الحياة به تربيه وتثقفه وتنميه ويجب أن نفكر فى الخطط الدراسية التى نستطيع باتباعها أن نقتصد فى وقتنا وجهدنا .

ولا بد أن من ينشد الثقافة سيجد نفسه حائراً بين أن يتوسع ويعرف أكثر ما يمكن من المعارف السطحية و بين أن يتعمق ويتخصص فى فن أو علم يعرفه بكل ما فيه و بكل هوامشه ونواحيه . أو هو بكلمة أخرى سيقف بين التعميم والتخصيص . فأى الخطتين يجب عليه أن يتبع ؟

لقد سبق أن ذكرنا خطة نابليون فى الحرب وهى أنه كان يصر على أن يكون متفوقا فى سلاح معين على العدو . وقد يكون هذا السلاح هو فرق الفرسان أو فرق المدافع أو فرق المشاة . ولكن لا بد من التفوق فى واحد منها أو فى غيرها لكى ينفذ عن سبيل هذا التفوق إلى نقطة ضعف فى العدو فيضربه فيها ويتجاوزها إلى سائر قواته فيفتتها .

ونحن أيضاً فى حاجة إلى خطة يجب أن نتبعها فى دراستنا لكى نصل إلى الظفر المنشود . والظفر المنشود هنا هو أن ننمو بالثقافة ونمتلك بأذهاننا أوسع وأكبر ما يمكننا من المعارف التى تربى بصيرتنا فى الحياة فإذا لم تحمل إلينا السعادة فلا أقل من أن تحمل إلينا الفهم . بل إن الفهم عند الرجل المثقف أهم من السعادة بل هو السعادة .

والراغب فى التثقيف الذاتى سيأخذ أولا فى التعميم و يتعرف إلى مختلف الفنون والعلوم . ولا غبار عليه فى ذلك . فإنه سيمد مجساته الذهنية إلى مختلف الموضوعات كأهداب الحشرة حتى يقع على الغذاء الذى يحب . أى حتى يهبط على المادة التى تحملنا ظروفنا ومزاجنا ومعيشتنا ومشكلاتنا على التعمق فيها . وعندئذ لن يكون أمامه أربعة ملايين كتاب يجب عليه أن يقرأ بل هو يكتفى بمئة كتاب أصلى وسائر ما يقرأ يعد فرعيا فى شرح هذه المئة أو فى التعليق عليها .

والخطة فى الثقافة هى أيضا كالخطة فى الحرب عند نابليون . أى أننا نتعمق فى نقطة . ثم نتوسع من هذه النقطة ونتفرع هنا وهناك فى مختلف المعارف التى تتصل بهذه النقطة أو المادة . وهذه الخطة هى الخطة الفسيولوجية التى تنهض على مقدار ما عندنا من كفايات ومالنا من ميول . ففى العالم الآن نحو ١٣٠ علما وفناً ومحال أن يكفى العمر البشرى لدراستها بل محال أن يقبل أحد الأذهان هذه الدراسة العامة لأنه لا بد سيصد عن بعض و يقبل على بعض . فما يجب على الراغب فى الثقافة إنما هو أن يرسل مجساته الذهنية حتى تهبط على المادة التى تحمله معيشته على التعرف إليها والتعمق فيها . ثم ينشر مجساته بعد ذلك إلى مختلف الفنون التى تتصل بها . فالمادة الأصلية التى يدرس هى النقطة البؤرية التى يحدث منها الإشعاع إلى المواد الأخرى . فالدراسة لا يمكن أن تجرى جزافا بل يجب أن تكون لها علاقه فسيولوجية بأذهاننا وما تتطلبه معيشتنا الفردية والاجتماعية

والذهن المتوسط — ولا نذكر الذهن العالى — لا يقنع فى الثقافة بأن يحسو من كل مورد جزافا وتسكعا . بل هو لا بد بعد فترة من الفوضى سيقع على المورد الوحيد الذى يعبّ منه . فعلى القارئ الذى يجد نفسه عازفا عن التعمق ألاّ ييأس . فإن الوقت لن يطول به حتى يجد شبكة المعارف التى تتصل بفسيولوجيته كما لو كانت شبكة من الأعصاب تتداخل فى أنحاء ذهنه . فإنه سيطلب هذه المعارف بالشهوة التى يطلب بها الطعام بل أحيانا أحدّ .

ولا يمكن إنسانا أن يسمى نفسه مثقفا ما لم يتعمق فى مادة معينة . وصحيح أن هناك علماء جهلاء تعمقوا فى مادة ثم لم يخرجوا منها إلى سائر المواد . ولكنى لا أسمى هؤلاء متعمقين و إنما أسميهم « متخصصين » . وهم فى الغالب لم يختاروا هذه المادة التى تخصصوا فيها

و إنما حملوا على التخصص قبل أن يقضوا من حياتهم فترة التسكع والاختيار . ونجد أمثال هؤلاء فى المتخصص مثلا فى الكيمياء لا يدرى شيئا من الاقتصاديات أو الأديان . وهذا لأنه هو قد بدأ يتخصص منذ صباه تقريبا فى المدرسة فلم تتح له الفرصة لكى يرعى فى المروج الخصبة للثقافة ويختار منها ما يحب . فتثقيفه فى الكيمياء لم يكن « ذاتيا » . وهذا الكتاب قد خصصناه للتثقيف الذاتى أى لأولئك الذين يبغون تربية أنفسهم . وكل منهم معلم وتلميذ وكلاهما حر فى اختياره .

على أن القارئ يجب أن يذكر — على الدوام — أنه لن يكون مثقفا حق الثقافة ما لم يتعمق فى علم معين . يكسب منه التدريب العلمى والتمييز بين الحقائق والبواطل . وهذا التعمق يجعله قادراً على النقد فى سائر المواد التى يدرس حتى الدراسة السطحية . وعليه هو أن يختار لأن اختياره ينبع من أعماق شخصيته بحيث يلائم كفاياته أى يجب فى لغة نابليون أن يتفوق فى سلاح معين ولا يبالى أن يكون بعد ذلك عاديا فى سائر الأسلحة . والخطة هنا للحياة كلها وليست للثقافة والحرب فقط .

والقارئ الذى تمضى عليه السنوات ونفسه جامدة لا تنزع إلى المادة التى يتعمق فيها إنما هو مريض يحتاج إلى العلاج . فعليه أن يسأل .

مئة كتاب

كثير من القراء يحتاج إلى تعيين الكتب « الأصلية » التى يحتاج المثقف إلى قراءتها . وهذه الكتب عامة لا يراد منها التخصص أو هى تعد ضرورية لكى نصل بقراءتها إلى الرقى البشرى الذى يحملنا إلى مستوى الروح العالمى السامى .

وواضح أن الشاب الذى عنى بترقية ذهنه لا يحتاج إلى أن ندله على أسماء هذه الكتب . لأنه هو يعرفها أو سوف يعرفها إذا كان قد سلك الطريق السوى فى الثقافة . ولكن هناك مع ذلك مؤلفات قد تخفى قيمتها على من لم يسمع بها . ومن هنا فكر كثير من رجال الذهن فى تعيين بعض الكتب و إيثارها على غيرها من حيث قيمتها فى التثقيف العام . وللدكتور اليوت مدير جامعة هارفرد سابقا بالولايات المتحدة قائمة مؤلفة من مئة مجلد نشرتها شركة كوليار أند صن فى مجلدات شكة واحدة من حيث الطبع والتجليد والورق . وأنا أنقل للقارئ الاسم والعنوان بالإنجليزية لكى يتصل بالناشرين إذا شاء .

DR. ELIOT'S
FIVE-FOOT SHELF OF BOOKS
(The Harvard classics)
P.F. Collier & son company
250 Park Avenue, New York city

ويجب على القارئ أن ينتبه إلى أن هذه السلسلة مؤلفة من مئة « مجلد » وليس مئة كتاب لأن هذه المجلدات تحوى ٣٠٢ من الكتب أى أن الدكتور اليوت وضع نحو ثلاثة من المؤلفين فى كل مجلد . وهو بالطبع قد بنى الاختيار على قواعد معينة من حيث وحدة الموضوع أو مشابهة المؤلفين أو نحو ذلك . وهو يبدأ بمؤلفات الإغريق القدماء حتى يصل إلى عصرنا . والحق أنه جمع أفضل المؤلفين فى جميع العصور الماضية . وليس بين هذه الكتب واحد يمكن أن يقال إن فى مستطاع المثقف الاستغناء عنه .

ومئة اسم آخر وضعها الدكتور هتشنز مدير جامعة شيكاجو الآن . وهى أيضاً تبدأ من عصر الإغريق إلى عصرنا . ولكنه يختلف عن الدكتور اليوت فى التفاته الأكبر إلى مؤلفى

الولايات المتحدة الأمريكية . وقد نشرت « مجلة التربية الحديثة » التى تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة أسماء هذه الكتب فى سنة ١٩٤٣ . ويجب أن ننبه هنا إلى أن هذه المئة إنما هى مئة مؤلف . وقد يكون لكل مؤلف بضعة كتب فالمجلدات تزيد على مئتين .

وقد يحسن بأحد الأساتذة فى كلية الآداب بجامعة فؤاد أن يذكر لنا مئة كتاب عربى يمكن أن يقتنيه من ينشد الثقافة على النمط الذى سنه الدكتور اليوت والدكتور هتشنز . ولكن كلا من هذين إنما يقصد إلى ثقافة بشرية عامة و إلى مؤلفين عالميين فى عصور وأمم مختلفة . ولم يقصد أحدهما إلى تعيين قائمة بأسماء المؤلفين الأمريكيين أو الإنجليز وحدهم .

والمؤلف يرى أن مجموعة الدكتور اليوت من خير المجموعات التى تستحق الاقتناء .

و إلى جنب هذه المجلدات المئة يحتاج القارئ إلى موسوعة للمراجعة والاستشارة . وأكبر الموسوعات هى « الموسوعة البريطانية » ولكن غلاء ثمنها — الذى يبلغ الآن نحو ٣٠ جنيهاً — يحول دون تعميمها . ولذلك يمكن اقتناء أى موسوعة أخرى أصغر منها .

وفى كل موسوعة عيب أصيل . وهى أنها تموت بسرعة . لأن المعارف التى تنشرها سرعان ما تتفرع أو تتغير . فتبقى هى راكدة بمعارفها القديمة . ولذلك أخرج الفرنسيون موسوعة جديدة (عطلتها الحرب) على مبدأ « الورق السائب » أى أن المقتنى لهذه الموسوعة يحفظها عنده بمجلداتها ثم يتسلم كل شهر تقريباً ورقا سائباً عن المعارف التى تجددت أو تغيرت فيضع ورقة جديدة فى مكان الورقة القديمة التى ينزعها و يطرحها . وهكذا تتجدد الموسوعة الى الأبد . والورق بالطبع يوضع بطريقة الدوسيهات التجارية أى أنه مخرَّم من أسفل و يوضع السلك الخروم بين دفتى كل مجلد . ويمكن القارئ أن يسأل عن هذه الموسوعة — التى لم تكمل داخل إلى الآن — باسم دومونزى De Monzie .

والموسوعات بالطبع لا تقرأ ولكنها تراجع . وفائدتها كبيرة إذا كانت حسنة . ولكن يجب الحذر من الموسوعات الإنجليزية (التى تنشر فى انجلترا) لعظم عنايتها بالألعاب الرياضية والارستقراطية البريطانية والتاريخ البريطانى وأيضاً لأنها مغرضة حولاء فى نظرها إلى شئون سياسة الاستعمار والمبادئ القيصرية خاصة . ولا يمكن قارئاً مصرياً أن ينتفع بهذه الموسوعات . ويجب أن نذكر هنا أن « الموسوعة البريطانية » تطبع و تنشر فى الولايات الأمريكية وهى عالمية النزعة .

ولـكن مع هذا الذى ذكرنا عن قيمة الموسوعات يجب أن نؤكد قيمة الـكتاب أولا وآخراً . فإن الـكتاب يثير العاطفة كما ينبه الذهن . ومؤلفه لا يكتب موجزا فى موضوعه بل يتوسع فى الموضوع أو فى ناحية معينة منه . ويمكن الاستغناء عن الموسوعات ولـكن لا يمكن الاستغناء عن الـكتب . ولو خير القارىء بين المجلدات المئة التى وضعها الدكتور اليوت أو الدكتور هتشنز و بين الموسوعة البريطانية لوجب عليه أن يؤثر الأولى على الثانية . لأن الأولى ثقافة عامة أما الثانية فدليل فقط .

البرنامج للتثقيف الذاتى

نقصد من إعداد البرنامج للتثقيف الذاتى إلى نقل النشاط من العقل الكامن إلى العقل العامل . أو من الرغبة العامة فى الرقى الذهنى إلى الإرادة الخاصة لتحقيق هدف معين . أو من بعثرة النشاط يجرى جزافا و يتفرق فى نواح مختلفة إلى بؤرة يحتد فيها و يلتهب ثم يتشعع إلى أنواع أخرى . فيكون التوسع والتعمق معاً عن مركز أصلى .

والواقع أن هذا ما يحدث بالفعل لكل شخص يقصد إلى الثقافة . فإنك لن تجد رجلا مثقفا إلا وله بؤرة أو بؤرات قليلة يتجمع فيها نشاطه بل يلتهب ثم يتشعع منها . فهو يتخصص فى مادة ثم ينتقل منها إلى مواد أخرى . وهذا هو الشأن حتى فى الذهن العادى إذا أخذ صاحبه نفسه بالجد فى الدراسة .

و إعداد البرنامج يهيئ هذا التخصص أى تكوّن البؤرة . فإن ظروف الحياة تستهلك الوقت والمال والجهد وتبعثر هذه القوات ، فلا يجد الراغب فى التثقيف كفايته منها لكى يدرس . ولكنه إذا أعد البرنامج استطاع أن يوفر منها الكثير لهذه الغاية . فإذا شاء مثلا أن يدرس لغة أجنبية فإنه يحتاج أولا إلى دراسة على يد أحد المعلمين لكى يقطع المرحلة الأولى حتى إذا وصل إلى الاستقلال الدراسى احتاج إلى شراء الكتب وتخصيص الوقت . ثم هذه الدراسة يجب أن تكون متصلة لا تنقطع شهراً أو سنة ثم تعود ، لأن هذا الانقطاع يبعثر النشاط وقد يؤدى إلى الفتور .

فلكى نتثقف يجب أن نعد البرنامج . فنعين الوقت الذى سنتخيره للدراسة ساعتين أو ثلاثا كل يوم . ويجب أن نعد المال الذى سننفقه على الدراسة بشراء الكتب أوالمجلات نحو عشرة جنيهات أوعشرين جنيها فى العام قد يذهب بعضها فى استخدام معلم للابتداء فى المادة وللاسترشاد بنصيحته . ثم نوالى الدراسة مدة عامين أو ثلاثة ، فلا نجيز لاهتمامات أخرى أن تستهلك الوقت أو المال اللذين خصصناهما للدراسة .

والعجب أن أحدنا يؤدى لابنه خمسين جنيها فى العام لنفقات تعليمه بالجامعة أو عشرين

جنيها لنفقات تعليمه بالمدارس الثانوية ثم يبخل على نفسه بثلاثين أو أربعين جنيها يشترى بها الكتب كل عام لكى يعلم نفسه ويوالى تربيته الذهنية . ومجتمعنا للأسف لا يشجع على هذه التربية للعوائق التى سبق أن ذكرنا ، مثل المباراة الاقتصادية المهلكة التى تجعلنا مسخرين فى جمع المال خوفا من المستقبل ، ومثل الزوجة الجاهلة التى تعارض فى شراء الكتاب ولا تدرك أن رف الكتب هو أشرف الأثاث فى البيت .

والقارئ لهذا الكتاب قد يحس أننا نكبر من شأن الثقافة كأنها فوق الحياة . وأننا يجب أن نعيش لنقرأ . وليس شك فى أن هناك أشخاصاً يفعلون ذلك . أى أن التثقيف قد أصبح الهواية التى تحتوى كل حياتهم . وهم سعداء بالجهد الذى ينفقون فى هذه الغاية . ولو قيل لأحدنا إن غاية الحياة هى المعرفة لما استطاع أن ينكر قيمة هذه النظرية انكاراً تاماً ، وإن كان فى قدرته أن يتحيفها من بعض نواحيها . فإن الإنسان الراقى لا يجد فى هذه الدنيا أسمى ولا أثمن من الفهم الذى تثمره المعرفة .

ومع ذلك يجب أن تقول إن التثقيف للحياة وليست الحياة للتثقيف . لأن بيت القصيد فى الحياة هو الحياة نفسها . بل إننا حين نقول هذا القول نوجه تثقيفنا إلى الوجهة المثمرة للفهم . فلا ننشد دراسات عقيمة كانت حية فى عصر ما ثم ماتت ولم يعد لها مغزى فى حياتنا الحاضرة .

أجل يجب أن نحيى من أجل الحياة أى أن غاية الحياة هى الحياة . وحتى حين نقول إن الفهم أو الحكمة أو الفلسفة أو المعرفة أو الصحة أو الطمأنينة هى غاية الحياة فإنما نعنى فى الواقع أن كل هذه الأشياء تؤدى فى النهاية إلى الحياة . ونستطيع بعد ذلك أن نصف هذه الحياة بأنها هى الحياة الشريفة أو السعيدة أو السامية .

وعندئذ نستطيع أن ننشد بدلا من أسلوب الكتابة أسلوب الحياة . ويجب أن يعيب الكاتب أو الدارس أن يتوخى النثر الفخم الرائع والشعر العالى الرصين فى حين هو لا يطلب من حياته أن تكون قصيدة سامية أو على الأقل نثراً رائعاً . أى أنه لا يطلب أن تكون حياته فنية يطّرد سيرها رقصا وتلحينا وليس مشياً مشوشاً . أجل . بدلا من أن نتوسع فى الكيمياء أو التاريخ يجب أن نتوسع ونتعمق فى الحياة ، لأن الحياة هى الأصل وهى الغاية .

ولكن ، لكى نتوسع ونتعمق فى الحياة ونستمتع بأشرف وألذ ما فيها ، ولكى نعيش الحياة البليغة ، حياة النفس والجسم والذهن ، ولكى يؤلف كل منا من حياته علواء ، كل خطوة فيها بيت من الشعر — أجل . لأجل هذا كله يجب أن نثقف عقولنا ونربى أنفسنا .

والوسيلة إلى ذلك هى المعرفة التى نحصل عليها بالدراسة ، فإذا تجمعت لنا المعارف من ميادين مختلفة فى العلم والأدب والفلسفة ، وإذا عالجناها بالفهم ، فإننا نكوّن منها الآراء السديدة .

على أن الآراء تستهلك مجهوداً نفسياً وذهنياً كبيراً . ولا يمكننا أن نسلك فى حياتنا بالرأى فقط . ولذلك فإن قيمة الثقافة هنا أن تحيل الرأى إلى عاطفة . ونعنى الرأى السديد الذى وصلنا إليه بتقليب المعارف وتفهمها . فإذا صار الرأى عاطفة دخل فى نظامنا النفسى وتغلغل فى كياننا . ونحن نمارس العاطفة فى سهولة و بلا وجدان . وعندئذ تحيل العاطفة جزءاً من أسلوب الحياة .

و بكلمة أخرى نقول : إن الخطوة الأولى للثقافة هى المعرفة
والمعرفة تؤدى إلى الفهم والرأى والحكمة
والرأى والحكمة يؤديان إلى العاطفة
ومن العاطفة يتكون أسلوب الحياة

فغاية الثقافة بل غايتها السامية هى الحياة . أى الوصول إلى أسلوب سام نعيش به . ومن هنا يجب أن تكون الثقافة « تطبيقية » غايتها مثل غاية الفلسفة وغاية الدين : معرفة ثم فهم ثم رأى ثم عاطفة ثم الأسلوب الذى نعيش به . والمقياس الذى نقيس به الثقافة يجب ألا يختلف من المقياس الذى نقيس به الديانة والفلسفة أى : ١ — ما هو مقدار الفهم الذى حققناه منها ؟ ٢ — ما هى العواطف التى بعثتها فى نفوسنا ؟ ٣ — ما هو أسلوب العيش الذى أدت إليه ؟